العنصرية وأثرها فى الجيش المملوكى

تأليف

دكتور أحمد عبد الكريم سليمان

كلية التربية بالفيوم (جامعة القاهرة)

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار النهضة العربية

للطبع والنشر والتوزيع

العنصرية وأثرها في الجيش المملوكي

تأليف

دكتور أحمد عبد الكريم سليمان

كلية التربية بالفيوم (جامعة القاهرة)

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار النهضة العربية
للطبع والنشر والتوزيع



محتويات الكتاب

صفحة

البحث الثالث

الصراع بين الترك والجراكسة فى

مقدمة

على الرغم من الدراسات الكثيرة والمتنوعة التى حظى بها تاريخ دولة سلاطين المماليك فى مصر الا أن المجـال لايزال خصبا لدراسات أخرى جادة ، وبخاصـة فيما يتعلق بالجـانب العرقى العنصرى وأثر النعرة العنصرية فى تشـكيل تاريخ تلك الدولة • ذلك أن المماليـك بوصفهم عنصر دخيل على رعاياهم فى مصر والشـام حرصـوا على الروابط التى تربطهم بأصولهم من ناحيـة ، وببعضـهم البعض من ناحية أخرى • ووجدوا فى هذه الروابط ماينشدونه من أمان وطمأنينة نفسية • وهكذا قامت دولة المماليك الأولى على أساس دعامة أساسية من عنصر القبجاق ، فى حين قامت دولة المماليك الثانيـة على أساس دعامة من عنصر الجركس •

على أن الحال يقتضى القول بأن المماليك سـواء من القبجاق أو الجراكسة سمحوا لعنـاصر أخرى من أجناس مختلفة بالانخراط فى طبقتهم الحاكمـة ، وان كانت هـذه العنـاصر قليلة العـدد بالنسبة لعنصرى القبجاق والجراكسة •

ويتضمن هذا الكتاب ثلاثة بحوث تدور كلها حول التباين العنصرى فى البنـاء المملوكى وأثره فى طبيعة العلاقات التى سادت بين مختلف العنـاصر التى تتألف منهـا هذا الجهاز • فالبحث الأول يعالج فرقـة البحرية فى الجيش المملوكى ، وهى الفرقة التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب وظلت تمثل عماد الجيش المملوكى لفترة طويلة • والملاحظ على هذه الفرقة أن مؤسسها اختـار الاعتماد على عنصر القبجاق من الترك فى البـداية لوفرة هـذا العنصر فى الأسواق ورخص ثمنـه

بالنسبة لباقى العناصر • وهكذا قامت دولة المماليك الأولى على أكتاف الأتراك القبجاق ، ومن هـذا العنصر كان السلاطين المؤسسون لتلك الدولة ، فساروا بدورهم على نفس السياسـة فى الاعتماد على بنى جنسهم القبجاق ، هـذا وان كانوا قد سمحوا بشراء مجموعات قليلة من التتـار والجراكسة وفقـا لظروف وأحـوال السوق • ومن بين سلاطين الدولة الأولى كان السلطان كتبغا من أصل مغولى ، وبيبرس الجاشنكير من أصل جركسى •

أما البحث الثانى فهو عن الوافدية فى الجيش المملوكى ، ويظهر هذا البحث كيف كان التعصب للمماليك المشتروات الذين بدأوا حياتهم بالرق منذ الطفولة • وكان معظم هؤلاء بطبيعة الحال كما أوضحنا فى البحث الأول من الترك القبجاق • أما العنـاصر الأخرى من الوافدية فبرغم انضمام مجموعات منهـا الى الجيش المملوكى الا أنهـا ظلت تعـانى من قيود شتى حالت دون وصولها الى قمة السلطة السياسية والعسكرية فى البناء المملوكى •

ويحمل البحث الثالث عنوان الصراع بين الترك والجراكسة ، وهو يظهر تعصب الجراكسة لبنى جنسهم دون بقيـة العناصر • ذلك أنهم بدأوا كفاحهم منذ دخول الجيش المملوكى فى عهد الدولة الأولى على يد السلطان قلاوون حتى تم لهم النصر النهائى على يد السلطان الظاهر برقوق سـنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢ م الذى يعتبر مؤسس دولة المماليـك الثانية أو دولة المماليك الجراكسة • وقـد أوضـحت كيف حـرص الجراكسة على الاستمرار فى سياستهم العنصرية طوال الدولة المملوكية الثانية حتى سقوطها على يد العثمانيين سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧م •

وأخيرا أرجو أن أكون قــد وفقت فى اظهار أثر الناحية العرقية فى تكييف البناء المملوكى بصورة توضح طبيعة هذه المؤسسةالعسكرية التى حكمت مصر نحوا من قرنين ونصف •

والله الموفــق ،،،

د• أحمد عبد الكريم سليمان

المبحث الأول

فرقــة البحــرية في الجيش المملوكى

فرقــة البحــرية في الجيش المملوكي

المعروف أن الجيش الأيوبى قــد ضم بين أفراده منــذ عهــد صــلاح الدين عــددا كبيرا من المماليــك الترك الى جانب الأكــراد والتركمان، ثم ازدادت أهمية طائفةالمماليك الترك بعد وفاة صلاح الدين عندما احتدم الصراع بين أبنــاء البيت الأيوبى حيث لجأ كل فريق الى زيادة عدد مماليكه [1] ، وبسبب تهــديدات الصليبيين وغزوهم مصر، هــذا بالاضــافة الى تسريح عدد من القادة الأكراد بعد المؤامرة التى دبرها الأمير الكردى ابن المشطوب ضد السلطان الكامل ، ففى عهد ذلك السلطان ٦١٥ ــ ٦٣٥ هـ/ ١٢١٨ ــ ١٢٣٨ م هاجم الصليبيون دمياط واستولوا عليها [2] ، وفى ذروة الهجوم الصليبى وتهديدهم بالاستيلاء

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن عناصر الجيش الأيوبى منذ عهد صــلاح الدين انظر : د. الباز العرينى الأيوبيون ، دار النهضة العربية ــ بيروت ص ١٦٤ ــ ١٦٨ ، د. العبادى : قيــام دولة المماليــك الأولى فى مصر والشام ص ٩٢ ــ ٩٣ ، ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصــور فى سيرة الملك المنصور ، المقدمة للدكتور مراد كامل ص ٣٥ ،

D. Ayalon, Aspects of the Mamluk phenomenon, Ayyubids, Kurds, and Turks. pp. 1 — 32, No. xb., in « the 'Manluk military Society, » Collected studis, London 1979.

(٢) ابن الأثــير : الكامل جـ ١٠ حوادث ســنة ٦١٤ هـ ص ٣٧٥ ــ ٣٧٨ ، ابن نظيف الحموى التــاريخ المنصــورى تحقيق د. أبد العيــد دودو دمشــق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ٧٥ ، أبو شــامه : الذيل على الروضتين (بيروت ١٩٤٧ م) ص ١٠٨ ، ابن كثير : البــداية والنهاية (بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٦ هـ) جـ١٣ ص ٧٨ ــ ٨٠ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤١٣ (طبع دار الرائد اللبنانى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٢٢ ، سعيد عاشور : الحركة
=

على مصر بأسرها تآمرت مجموعة من القـادة الأكراد بقيـادة الأمير عمـاد الدين أحمد بن على المشـهور باسـم ابن المشطوب على خلع السلطان الكامل واحلال أخيه الفائز محله اعتقـادا منهم أن الفـائز سيحقق مصالحهم الخاصة [٣] • وأصبح الأمر حرجا بعد أن اضـطر الكامل للفرار من معسكره ، ودبت الفوضى فى جيشه ، ولم ينقذ الأمر سوى التـدخل السريع من سلطان دمشق المعظم عيسى الأيوبى شقيق السلطان الكامل • فالمساعدة العاجلة التى تلقـاها الكامل من الشـام والعراق فضـلا عن انقسام الصليبيين وأخطائهم مكنته من هزيمـة الصليبيين وطردهم من مصر ، كما استطاع الكامل أيضا أن ينفى من مصر الأمـراء الأكـراد الذين تآمروا ضـده ، وأعطى اقطـاعاتهم

=

الصليبية جـ٢ ص٩٦٥ وما بعدها ، د. العبـادى : قيـام دولة المماليـك الأولى فى مصر والشام ص ٨١ وما بعدها ،

Stanley Lane. Poole, History of Egypt in the Middle ages, pp. 219 — 224.

(٣) وقـد ذكر ابن الأثير عن ابن المشطوب أنه « اكبر أمير بمصر ، وله لفيف كثير ، وجمع من الأمـراء ينقـادون اليه ويطيعونه لاسـيما الاكراد » . الكامل حـ١٠ ص ٣٧٦—٣٧٧ ، وانظر ايضا المصادر والمراجع الآتيـة : ابن خلكان ، وفيات الاعيان تحقيق احسان عباس حـ١ ص ١٨٠ — ١٨٤ ، حـ٥ ص ٧٩ — ٨٠ ، أبو شامه : مصـدر سابق ص ١١٦ ، ١٢٢ ، أبو الفـداء : المختصر فى أخبار البشر حـ٣ ص ١٢٠ ، (طبع دار المعرفة بيروت) ، ابن خلدون : كتاب العبر .. مجلد ٥ حـ١٠ ص ٧٥٠ — ٧٥٢ (طبع دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٣م) ، ابن تغرى بردى: النجوم حـ ٦ ص ٢٣٠ — ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ابن كثير : مصـدر سابق حـ١٣ سنة ٦١٥ هـ ص٨٠ ، د. سعيد عاشـور : الحركة حـ٢ ص ٩٧٢ — ٩٧٣ ، ٩٧٩ ، ٩٨١ — ٩٨٤ ، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٠٠ .

لماليكه (٤) .

وازدادت طائفـــة المماليك عددا فى مصر بعــد أن قــدم عــدد كبير من مماليك المعظم عيسى ــ بعد وفاته ــ الى مصر حيث استقبلهم الملك الكامل استقبالا طيبــا . وعندما مات الملك المسعود حاكم اليمن وهو ابن السلطان الكامل جاء مماليكه الى مصر ودخلوا ضمن وحدات جيش الكامل (٥) . وهكذا أصبح الأكراد يحتلون المرتبــة الثانية فى جيش الكامل نتيجة لعدم اخلاصهم له وتآمرهم عليه ، حين كانت البلاد مهددة بالسقوط فى يد الصليبيين ، فى حين أصــبح العنصر المملوكى من الترك هو الأكثر ظهورا على المسرح العســكرى ، وان كان دورهم السياسى لم يكن قد برز حتى ذلك الوقت (٦) .

وكان الصالح نجم الدين أيوب حريصا على زيادة مماليكه الترك، فخلال غياب والده السلطان الكامل فى الشام والعراق فى الفترة من سنة ٦٢٥ ــ ٦٢٧ هـ / ١٢٢٨ ــ ١٢٣٠ م كان الصالح نائبا لأبيه الكامل فى مصر ، وقــد اشترى الصــالح نجم الدين عددا من المماليك الترك كى يقوم بانقــلاب ضد والده ويستولى على العرش ، وعندئذ أسرعت زوجة الكامل (أم العــادل) باخطار زوجها بالأمر وبخطة الصــالح

---

(٤) ابن الأثير : مصــدر سابق حـ١٠ ص ٣٧٧ ــ ٣٨٠ ، ٤٢٨ ، ابن نظيف الحموى : مصدر سابق ص٩٢ ، ابن كثير : مصدر سابق حـ١٣ ص٩٥ ، أبو الفــداء : مصــدر سابق جـ٣ ص١٣٠ ، ابن خلكان : مصدر سابق حـ ٥ ص ٧٩ــ٨٠ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين تحقيق د. سعيد عاشور ص ٢٣٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور حـ١ ق١ ص ٢٦١ــ٢٦٢ ، د. سعيد عاشور : الحركة حـ٢ ص٩٧٣ ، الأيوبيون والمماليك ص١٠٠ ،

D. Ayalon, Aspects ..., pp. 21 — 22 .

(٥) المقريزى : السلوك حـ١ ق١ ص ٢٣٧ ،

D. Ayalon, Aspects.., p. 22 — 23.

(6) D. Ayalon, Aspects..., p. 22 — 23.

نجم الدين أيوب ، فأسرع الكامل بالعودة الى مصر حيث عين ابنـــه العـــادل وريثا له ونائبا فى مصر ، وخلع الصالح من ولاية العهد [٧] ثم رسخت فكرة اعتماد الصالح نجم الدين أيوب على مماليكه الترك وحدهم عنـــدما واجه الهزيمة فى المعركة بينـــه وبين أخيـــه العـــادل بسبب تخلى الأكراد عنه ، ولم يصمد معه سوى ثمانين من مماليكه[٨] . وعندما أصبح الصـــالح نجم الدين أيوب سلطانا على مصر منذ سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م أقبـــل على شراء المزيـــد من المماليـــك الترك والخطائيـــة [٩] .

وليس لدينـــا احصائيات دقيقة عن أعداد المماليك الذين خدموا فى جيش الصـــالح نجم الدين أيوب ، غير أن حركة عزل العادل الثانى واحلال الصـــالح أيوب محله تدل على مدى تفوق العنصر التركى على العنصر الكردى فى تلك الفترة . ويقال بأن المماليـــك الجـــدد الذين اشتراهم الصـــالح نجم الدين أيوب قـــد تراوح عددهم فى بـــداية

---

(٧) المقريزى : مصـــدر ســـابق حـ١ ق١ ص ٢٣٨ — ٢٤٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب حـ٤ ص٢٧٧ — ٢٧٨ ، د. العبادى : مرجع سابق ص ٩٢ — ٩٣ ،

D. Ayalon, Aspects..., p. 24 ; Le Regiment Bahriya dans L'Armée Mamelouke, p. 133, in, « Studies on the Mamluks of Egypt, N. III ».

(٨) المقريزى : الخطط حـ٢ (طبع بولاق) ص ٢٣٦ ، كتاب السلوك حـ١ ق٢ ص ٢٨٨ ،

D. Ayalon, Aspects.. p. 25 ; Le Regiment., p. 133.

(٩) المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص٣٠٠ ، ابن تغـــرى بردى : النجوم حـ٦ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

الأمر مابين الثمانمائة وبين الألف مملوك (١٠) • وقد اختار هذه النخبة من الترك والخطا من بين القبـائل التى استولى عليها المغول فى أثناء غزوهم لبلاد الشرق والشمال والقبجاق حيث نتج عن ذلك توفر أعداد كبيرة فى أســواق الرقيق من هذه العنـاصر لاسيما القبجاق • وقد كون الصالح من هؤلاء حرســه الخاص ، وعاشوا فى كنفه ورافقوه فى حمـلاته العسكرية وفي استراحاته ، وكانوا دائما حول خيمته ، وكان هؤلاء الترك يعظمون الصالح نجم الدين أيوب ويهابونه ، وكانت ثكنتهم العسكرية فى قلعـة جزيرة الروضـة على النيل ، وقـد أطلق الصالح عليهم اسم البحرية (١١) • ولم يكن اطـلاق الصـالح اسم «البحرية» على فرقته الجديدة من المماليك أمر جديدا في مصر، فقد سبق أن عرف هذا الإسم في عهد العادل الأول جد الصـالح أيوب ، كما

---

(١٠) ابن أيبك الدوادارى : كنز الدر — وجامع الغرر حـ٨ المعروفه باسم : الدرة الزكية فى أخبـار الدولة التركيـة تحقيق اولرخ هارمان — القاهرة ١٩٧١ م — ص١٤ ، ابن اتماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار (دار الآفاق الجديدة بيروت) القسم الأول ص١١٠ ، المقريزى : الخطط حـ٢ ص ٢٣٦ ،

D. Ayalon, Aspects... p. 25, Le Regement, p. 139.

(١١) المقريزى : الخطط حـ٢ ص ٢٣١ ، ٢٣٦ ، السلوك حـ١ ق ٢ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ ، ابن دقماق : الانتصـار .. القسم الأول ص ١١٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص١٦ (طبع بيروت) ، ابن تغرى بردى: النجوم حـ٦ ص ٣٣١ ، أبو الفـداء : مصدر سابق جـ٣ ص ١٧٩ — ١٨٠، ابن اياس : مصدر سابق حـ١ ق١ ص ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، د. سـعيد عاشور : العصر المماليكى ص٥ ، د. الباز العرينى : المماليك ص ٥٥ ، د. العبادى : مرجع سابق ص ٩٤ ،

D. Ayalon, Le Regement.. p. 134 ; Aspects... pp. 25 — 26 ; G. Wiet, L'Egypt Arabe, p. 388 ; S. Lane poole, History of Egypt in the Middle ages, p. 243 ; Glubb, Soldiers of Fortune, pp. 37 — 39.

عرف قبل ذلك فى العهد الفاطمى ، بل عرف أيضا فى اليمن فى عهد السلطان نور الدين عمر بن رسول ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م [١٢] .

ويبدو أن الملك الصالح نجم الدين أيوب قد اشترى خلال حكمه ٦٣٧-٦٤٧هـ / ١٢٤٠-١٢٤٩م عددا كبيرا من المماليك الترك البحرية، وأن هذه الفرقة قد تزايد عددها بدرجة ملحوظة حتى أنها حجبت بقية عناصر الجيش عن الظهور ، والدليل على ذلك أن مصادر ذلك العصر لم تذكر فى حياة الصالح أو بعد مماته سوى هؤلاء المماليك الذين عرفوا بالصالحية وأهملت تماما العناصر الأخرى من الأكراد والتركمان مما يدل على تلاشى نفوذ هذه العناصر فى جيش الصالح نجم الدين أيوب وزوال نفوذها ، فى حين أصبحت فرقة المماليك البحرية هى العمود الفقرى للجيش ، وبالاضافة الى مهمتها فى حراسة قلعة الروضة فقد اشتركت فى المعارك الرئيسية التى خاضها الجيش المملوكى . وفى معركة المنصورة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م أصرت مجموعة من المماليك البحرية على مهاجمة الصليبيين حتى تم النصر للمسلمين ، وظل البحرية يتفاخرون بهذا العمل ويقولون : « نحن خلصنا مصر

---

(١٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية طبع صنعاء ، بيروت ١٩٨٣ م حـ١ ص٨١ ، د. العبادى : مرجع سابق ص ٩٧ — ٩٩ .

ويذكر د. العبادى نقلا عن جوانفيل الذى رافق حملة لويس التاسع على مصر أن تسمية المماليك بالبحرية يرجع الى أنهم جاءوا الى مصر من وراء البحر ونص عبارة جوانفيل وهى :

They were Called Bahariz « Folk From the Sea ».

أنظر :

Villehardouin and D. Joinville, Memoirs of the Crusades, Joinvilles chroncle of the Crusade of St. Lewis, p. 205. London 1965.

والشام بسيوفنا من الفرنج » (١٣) .

وتوفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب وخلفه ابنه المعظم تورانشاه الذى كان مقيما فى حصن كيفا . وقد قلب تورانشاه سياسة أبيه رأسا على عقب ، فأطلق كل السجناء الذين سجنهم أبوه الصالح فى دمشق ، وهدد باستئصال شأفة مماليك أبيه البحرية وكسر شوكتهم . وقد أدت رعونة وخشونة تورانشاه الى الدخول فى صدام محتم مع المماليك البحرية انتهى بقتله ، وتولية شجر الدر زوجة الصالح نجم الدين أيوب ، وهذا دليل آخر على مدى ماوصلت اليه فرقة البحرية من نفوذ ، فقد اغتالت تورانشاه دون أن تحرك عناصر الجيش الأخرى ساكنا لانقاذه (١٤) .

---

(١٣) المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص٣٥٠ ، ٣٥٥ — ٣٥٦ ، الخطط حـ٢ ص٢٣٧ ، ابن ايبك الدوادار: كنز الدرر حـ٨ « الدرة الزكية » ص٢٢ ،
D. Ayalon, Le Regement.. p. 135 ; Aspects.. pp. 25 — 26.

(١٤) أبو الفداء : مصدر سابق حـ٣ ص ١٨١ — ١٨٢ ، أبو شامة: مصدر سابق ص ١٨٥ — ١٨٦ ، المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص ٣٥٢، ٣٥٨ — ٣٦١ ، الخطط حـ٢ ص٢٣٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ٦ ص ٣٧٠ — ٣٧١ ، ابن خلدون : المجلد الخامس حـ١٠ ص ٧٨٢—٧٨٣ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤—١١ ، د. الباز : المماليك ص٤٦ ، الأيوبيون ص١٥٢ ،
D. Ayalon, Aspects., p. 26 — 27 ; Le Regement, p. 135 ;

وقد ذكر ابن العبرى سببا آخر لقتل تورانشاه وهو عدم موافقة كبار الأمراء على اطلاق سراح ملك فرنسا الأسير فى معركة المنصورة . أنظر : ابن العبرى : تاريخ الزمان ترجمة الأب اسحاق أرمله ص ٢٩٤ — ٢٩٥ (دار المشرق بيروت) تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٤ — ٤٥٥ (دار الرائد اللبنانى بيروت ١٩٨٣ م) .

ويلاحظ أن المؤرخ ابن دقماق لم يأخذ بالرأى الغالب عند المؤرخين باعتبار شجر الدر هى أولى سلاطين المماليك ، واعتبر أن عز الدين أيبك هو أول السلاطين . أنظر : الجوهر الثمين ص ٢٥٦ .

وتطورت الأمور السياسـية فى مصر ، فاعتلى عز الدين أيبـك التركمانى [١٥] العرش وشرع فى وضع حـد لتسلط البحرية • وتمكن سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م من قتل زعيمهم الأمير أقطاى ، كما أمر عز الدين أيبـك بالقبض على باقى زعمـاء البحرية فهـرب أكثرهم من مصر ، فمنهم من قصد الملك المغيث بالكرك ، ومنهم من سار الى الملك الناصر بدمشق ، ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقـاء والـكرك والشـوبك والقـدس ، يعملون قطاعا للطرق ويأكلون بسيوفهم ، كما سار منهم مائة وثلاثون الى السلطان علاء الدين سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى • ولكى يضمن عز الدين أيبك عـدم عودة البحرية الى مصر مرة أخرى طلب من النـاصر الأيوبى سلطان دمشق اعادة بلاد ساحل الشام الى حوزة مصر ، فوافقـه الناصر على ذلك ، فأقطعها عز الدين أيبك للبحرية الهاربين كى يستقروا نهائيـا فى تلك المناطق [١٦] • كما كتب عز الدين أيبك الى سلطان سـلاجقة الروم يخوفه من البحـرية ويحذرهم من شرورهم ويحثـه على طردهم وعـدم الاطمئنان اليهم لأن « البحـرية قـوم منـاحيس أطراف ، لايقفون عنـد الايمان ، ولا يرجعون الى كلام من هو أكبر منهم ، وان استأمنتهم خانوا ، وان استحلفهم كذبوا ، وان وثقت بهم غدروا • فتحرز منهم على نفسك ،

---

(١٥) لم يكن عز الدين أيبك تركمانيا كما يدل على ذلك لقبه ، بل هو تركى من القفجاق ، أما بسبب تلقيبـه بالتركمانى فهو انتسابه الى عائلة تحمل ذلك الاسم قبل اعتلائه السلطنة انظر :

D. Ayalon, Names, titles, Nisbas of the Mamluks, p. 220, in « The Mamluk Military Society » ;

السلوك : حـ١ ق٢ ص٣٦٨ ، الخطط حـ٢ ص٢٣٧ •

(١٦) المقـريزى : السـلوك حـ ١ ق ٢ ص ٣٩٠ — ٣٩٣ ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر « تحقيق د. الخويطر » ص ٥٤ — ٦٣ ،

D. Ayalon, Le Regement.. p. 136 ; Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.. p. 7 — 8 .

فانهم غدارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك » • ولما استفسر سلطان الروم من البحرية عن موقف عزالدين أيبك منهم أقنعه للبحرية بأن عز الدين ليس أستاذهم ، « انما هو خوشداشنا [١٧] ونحن وليناه علينا ، وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرا وأفرس وأحق بالملكة ، فقتل بعضنا وحبس بعضنا وفرق بعضنا فهربنا منه وتشتتنا فى البلاد ، ونحن التجأنا اليك » وقد اعجب سلطان الروم بهم واستخدمهم عنده [١٨] •

واذا كان السلطان عز الدين أيبك قد نجح فى التخلص من البحرية وطردهم منمصر فانهم حافظوا علىقيمتهم العسكرية وشكلوا عنصرا عسكريا من الطراز الأول فى جيوش السلاطين الأيوبيين فى الكرك ودمشق • ولعب البحرية دورا نشطا وعمليا سواء بالتحريض أو الاشتراك المباشر فى الحرب من أجل استعادة الأسرة الأيوبية حكم مصر •

وهكذا اشترك البحرية مع المغيث عمر حاكم الكرك فى محاولاته غزو مصر سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م وسنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، غير أن المحاولتين باءتا بالفشل ، ولحقت بالأيوبيين والبحرية الهزيمة على يد قطز نائب السلطنة فى مصر [١٩] •

---

(١٧) الخشداش هو الزميل فى الخدمة ، والخشداشية هى رابطة الزمالة بين المماليك الذين نشأوا عند أستاذ أو سيد واحد — انظر : ابن دقماق الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين تحقيق د. سعيد عاشور ص ٢٥٠ •

(١٨) المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص ٣٩٣ •

(١٩) عن الأحداث السياسية فى مصر بعد موت الصالح نجم الدين أيوب واشتراك المماليك البحرية فيها وطردهم من مصر وتحريضهم الأيوبيين على غزو مصر انظر المصادر الآتية : ابن عبد الظاهر : مصدر سابق =

وعاد نفوذ البحرية فى مصر الى الظهور مرة أخرى بعد قتل كل من المعز أيبك وشجر الدر . وفى الوقت الذى تزايد الخطر المغولى الزاحف من الشرق أصبح الأمير قطز هو الحاكم الفعلى للبلاد فى ظل سلطان صغير قاصر هو المنصور على بن عز الدين أيبك . ولما كانت العقبة الرئيسية أمام عودة المماليك البحرية المطرودين من مصر قد زالت بوفاة عز الدين أيبك ، فقد عاد على الفور الفريق الذى كان قد لجأ الى السلطان السلجوقى فى آسيا الصغرى [٢٠] أما أولئك الذين كانوا عند الناصر يوسف فانهم أخذوا يتنقلون مابين دمشق والكرك يؤيدون المغيث تارة والناصر تارة أخرى ، ولم يعودا الى مصر الا سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م بزعامة بيبرس البندقدارى حيث استقبلهم قطز الذى كان قد استولى على العرش لنفسه بحجة حاجة البلاد الى سلطان كبير يقاوم التتار ؛ استقبلهم بترحاب كبير ودعاية ضخمة. ونظرا لأنه كان يدرك قدراتهم العسكرية ، فقد الحقهم فورا بالجيش

=

ص ٤٦ — ٦١ ، أبو الفداء : مصدر سابق حـ٣ ص ١٧٩ — ١٨٣ ، ١٩٢ — ١٩٥ ، المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ٧ ص ٤٤ — ٤٧ ، ٥٣ ، ابن خلدون : مصدر سابق مجلد ٥ حـ١٠ ص ٧٨٧ — ٧٨٩ ، ابن أيبك الداودارى : مصدر سابق حـ٨ « الدره الزكية » ص ٣٠ — ٣٢ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ٢٣ — ٢٥ ، وانظر أيضا :

D. Ayalon, Le Regement.., p. 136 ; S. Lane poole, op. cit, p. 259 — 261 .

(٢٠) ابن كثير : مصدر سابق حـ١٣ ص ٢١٦ ، المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص ٤٠٦ ،

D. Ayalon, Le Regement.., p. 136.

استعدادا لمواجهة المغول الزاحفين من جهة الشرق (٢١) .

ونجح المماليك البحرية بزعامة قطز وبيبرس البندقدار فى صد جحافل المغول عن بلاد الشام ومصر ، وانتصروا انتصارا رائعا فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م وهو النصر الذى كان بمثابة الواجهة الشرعية لحكم المماليك بعد أن أصبحوا هم القوة الوحيدة القادرة على حماية البلاد . واذا كان المظفر قطز قد قتل غيلة وهو فى طريق عودته من ميدان المعركة الى القاهرة ، فان قاتله الذى كان شريكه فى صنع النصر وهو بيبرس البندقدار قد اعتلى عرش السلطنة، ووضع الأسس الثابتة لدولة المماليك الأولى ، وكان عنصر القبجاق الترك هو الدعامة الرئيسية لتلك الدولة (٢٢) .

---

(٢١) ابو شامه : مصدر سابق ص٢٠٣ ، أبو الفداء : مصدر سابق حـ٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، ابن ايبك الدوادارى : مصدر سابق حـ ٨ (الدره الزكية) ص٤٩ ، المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ٧ ص ٥٤ — ٥٥ ،

D. Ayalon, Le Regement.., pp. 136 — 137.

(٢٢) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ص ٦٣ — ٧٠ ، ابن أيبك : مصدر سابق حـ٨ ص ٤٩ — ٥٧ ، ٦١ — ٦٣ ، أبو الفداء : مصدر سابق حـ٣ ص ٢٠٥ — ٢٠٨ ، ابن كثير ، مصدر سابق حـ١٣ ص ٢٢٠ — ٢٢٢ ، رشيد الدين : جامع التواريخ مجلد ٢ حـ١ ص ٣١٣ — ٣١٧ : ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٨٩ — ٤٩٢ ، ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى حـ٢ ص٢٩٥ ، أبو شامة : مصدر سابق ص ٢٠٧ ، ٢١٠ ، اليونينى : ذيل مرآة الزمان حـ١ ص ٣٦١ — ٣٦٦ ، المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص ٤٢٩ — ٤٣٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ٧ ص٧٩ — ٨٠ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٢ — ٣٥ ، الحركة حـ٢ ص ١١٣٣ — ١١٣٧ ،

Grousset, L'Empire des Steppes, p. 439 ; Howorth. History of the Mongols, p. III, p. 168 — 169.

واستقر الأمر لبيبرس البندقدارى فى حكم مصر ، وشرع فى انشاء جيش قوى لحماية البلاد وصد الخطر المغولى الذى لايزال قائما ، والخطر الصليبى فى المناطق الساحلية فى بلاد الشام • وفى هذا المجال فان بيبرس نظر الى فرقة البحرية الصالحية على أنها الأساس فى تكوين ذلك الجيش ، فرفع من شأن أفرادها الذين كانوا خشداشيته ، كما أمر باحضار البحرية البطالين من البلاد ، يقول ابن عبد الظاهر : « ولما أعطاه الله الملك لم يشغله شىء عن الاحسان الى كبيرهم وصغيرهم ، وقدمهم بعد أن اعتقد كل منهم أنهم لاتقوم لهم قائمة أبدا ، وجمع شملهم بعد أن كانوا تهججوا فى البلاد ، واستخفوا حتى أن أحدا منهم ماكان يجسر يذكر لفظ التركية ولا الجندية ، فلما من الله باقبال دولة السلطان جمع منهم الشريد ، وقرب البعيد ، وقدم المتأخر ، وولى المعزول ، ورد عليهم ماكان غصب من أملاكهم وأموالهم ونعمهم ، وأمر من يستحق الامرة ، وقدم عليهم من يصلح للتقدمة ، وجعل لهم ديوانا مفردا ، وصاروا من المختصين به ، والحافظين لقلعته فى غيبته وحضوره ، وما اقتنع بذلك ، حتى تفقد أولاد من مات فى هذه المدة من خوشداشيته ومماليكهم وغلمانهم ، وقرر لهم المقررات » [٢٣] • وهكذا أصبحت فرقة البحرية هى الأكثر شرفا فى الجيش الذى أنشأه الظاهر بيبرس ، والأهم من ذلك أن هذه الفرقة ظلت تحتفظ باسم مؤسسها الأول الصالح نجم الدين أيوب ، فصارت تعرف بالبحرية الصالحية [٢٤] • وقد أنشأ الظاهر بيبرس فرقة أخرى من البحرية صارت تسمى البحرية الظاهرية ، ولم تندمج هذه الفرقة الأخيرة مع الفرقة البحرية الصالحية ، وانما

---

(٢٣) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ص ٧٤ ، وانظر أيضا : ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢٧٤ •

(٢٤) ابن تغرى بردى : النجوم حـ٧ ص ١٠٣ ، المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص ٤٣٨ ،
D. Ayalon, Le Regement.., p. 137.

احتفظت هي الأخرى باسمها الخاص بها ، وصار لكل منهما مقدم خاص بهـا (٢٥) ، ينبغى أن يبيت أمام القلعة يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع (٢٦) .

وقد ظلت فرقة البحرية الصالحية قائمة حتى عصر السلطان قلاوون ٦٧٨ — ٦٨٩هـ /١٢٧٩ — ١٢٩٠م ، واستند عليها فى بداية حكمه ورفع من شأنها ، وأعطى أفرادها الأقطاعات وكبر منهم جماعة من خشداشيته كانوا قد نسوا وأهملوا ، وعين بعضهم حكاما فى القلاع فى البلاد الشامية ، كما شكل قلاوون فرقة جديدة من أبناء البحرية الصالحية الذين كانوا قد تعلقوا بالصنائع والحرف وساءت أحوالهم المالية ، وعهد اليهم بحراسة القلعة والجلوس على أبوابها ، هذا فى حين قلل قلاوون من شأن البحرية الظاهرية ، فطرد وعزل عددا كبيرا من أمرائهم (٢٧) . ويبدو أن السبب فى ذلك هو تآمر الظاهرية على قلاوون واتصالهم بالأمير سنقر الأشقر الثائر على السلطان . وكان سنقر الأشقر نائب الشام قد رفض الاعتراف بسلطنة قلاوون وأعلن نفسه سلطانا وتلقب بالملك الكامل ، وانضم اليه فى الفتنة رؤساء قبائل العربان فى الشام ، واضطر السلطان قلاوون

---

(٢٥) المقريزى : الخطط حـ٢ ص ١١١ ، ١١٠٢ ، السلوك حـ١ ق ٢ ص ٦٥٨ ، حـ١ ق٣ ص ٦٨٦ ،

D. Aaylon ; Le Regement.., p. 137 — 139 ,

وانظر ايضا : ابن الفرات تاريخ الدول والملوك حـ٧ ص٢٠٧ .

(26) D Ayalon, Le Regement.., p: 139.

(٢٧) المقريزى الخطط حـ٢ ص٢١٧ ، السلوك حـ١ ق٣ ص ٦٥٨ ، ٦٧٢ ، ٦٨٦ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ١ ق١ ص ٣٨٤ ،

D. Ayalon. Le Regement.. pp. 137 — 139 ;

وانظر أيضا : ابن الفرات ، مصدر سابق مجلد ٧ سنة ٦٧٨ هـ ص ١٥٠ ،

الى تجريد الجيوش وارسالها لقتال سنقر الأشقر الذى كاتب ايلخان المغول أبغــا يحرضه على غزو الشــام ، ثم تحصن سنقر فى حصن صهيون مع قواته [٢٨] .

وظلت بقــايا الصالحية الى نهــاية القرن السابع الهجرى عندما توفى الأمير الكبير بيسرى سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨ م ، وهــو من الأمراء المشهورين من مماليــك الصــالح نجم الدين أيوب [٢٩] . وفى ســنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م توفى الأمير بيبرس الجالق فى عمر الثمانين ، وهو آخر أمراء البحرية الصالحية [٣٠] .

ويبــدو أن وظيفــة عناصر البحرية قد أصبحت فيما بعد قاصرة على خدمة الحراسة فقط ، وان كانت هناك استثناءات قليلة من هــذه القاعدة . من ذلك أن الظاهر بيبرس قد أرسل سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م قوة من البحرية الصالحية للعمل فى حراسة حصن الكرك . وفى العام

---

(٢٨) المقريزى : السلوك حـ١ ق٣ ص ٦٧٤ — ٦٧٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ٧ ص ٢٩٤ — ٢٩٩ ، أبو الفداء : مصــدر سابق حـ٤ ص ١٣ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه تحقيق د. محمد محمد أمين ص ٥٢ .

(٢٩) هو الأمير بدر الدين بيسرى بن عبد الله الشمسى الصــالحى النجمى . انظر : المقريزى : السلوك حـ١ ق٣ ص ٨٨٠ — ٨٨١ ، وقــد ذكر ابن تغرى بردى أن السلطنة عرضت على الأمير بيسرى مرات عديدة، بعــد الملك السعيد بن الظاهر ، وبعد قتل الأشرف خليل ، لكنه لم يقبل ، وترقى حتى صــار أمير مائة مقدم ألف ، وقــد قبض عليه المنصور قلاوون وحبسه ، وأفرج عنه الأشرف ، ثم قبض عليه مرة أخرى فى عهد لاجين ، وظل فى الحبس حتى مات فى الجب : أنظر النجوم حـ٨ ص١٨٥ ،

D. AAyalon, Le Regement.., p. 138 ;

(٣٠) ابن تغرى بردى : النجوم حـ٨ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ،

D. Ayalon, Le Regement., p. 138.

التالى اشتركت هــذه القوة فى حملة عسكرية ضد خيبر [٣١] • وفى عام ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م قام الأمير قبجق نائب الشام بالحاق البحــرية الموجودين فى قلعــة دمشق بجيش الاقليم فى احدى الهجمات ضــد المغول [٣٢] • وفيما عدا هذين الحادثين لايبدو أن البحرية اشتركت فى الحروب بل اقتصرت مهمتهــا على الحراسة فقط [٣٣] • والمعروف أن السلطان قلاوون عنــدما زار الكرك سنة ٦٨٥هـ / ١٢٥٩م وضع فى ذلك الحصن جمــاعة من البحرية لحراسته والدفاع عنه [٣٤] • وقــد استمر هذا الوضع فى عهد السلطان الأشرف خليل [٣٥] •

وقد ظلت عنــاصر من أجناد الجيش المملوكى يطلق عليها اسم البحرية فترة طويلة تمتد حتى عصر المقريزى فى النصــف الأول من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميــلادى • والمقريزى يذكر صراحة « والى اليوم طائفــة من الأجنــاد تعــرف بالبحرية » [٣٦] كما أن القلقشندى لفت النظر الى ذلك أيضــا بقوله « ومن الأجنــاد طائفــة ثالثة يقال لها البحرية يبيتون بالقلعــة وحول دهاليز السلطان

---

(٣١) ابن عبد الظاهر : مصــدر سابق ص ٢٢٠ ،
D. Ayalon, Le Regement..p. 138 — 139.

(٣٢) المقريزى : السلوك حـ١ ق٣ ص ٨٥٢ ،
D. Ayalon, Le Regement.. p. 139.

(33) D. Ayalon, Le Regement.. p. 139.

(٣٤) المقريزى : السلوك حـ١ ق٣ ص ٧٣٢ ،
D. Ayalon, Le Regement.. p. 140.

(٣٥) ومن أمراء البحرية المشهورين الذين اســتقروا فى الكرك فى عهد الأشرف خليل الأمير علم الدين سنجر الجاوى •
انظر المقريزى : الخطط حـ٢ ص ٣٩٨ •

(٣٦) المقريزى : الخطط حـ٢ ص ٢١٧ ،
D. Ayalon, Le Regement.. p. 138.

فى السفر كالحرس . وأول من رتبهم وسماهم بهـذا الاسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب » [٣٧] . وفى منتصف القرن التـاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى وجدت عناصر من البحرية فى خمسة حصون فى بلاد الشام . ومن البلاد التى وجدت البحرية فى قلاعهـا دمشق وحلب والكرك وطرابلس والرحبة [٣٨] ، وذكر القلقشندى عن قلعـة حلب أن فيها « من الأجنـاد البحرية المعـدين لحراستها نحو أربعين نفسا ، مقيمون بها لايظعنون عنهـا بسفر ولا غيره ، ويجلس منهم فى كل نوبة عـدة فى الباب الثانى منها من حين فتح الباب فى أول النهـار والى حين قفله فى آخر النهار » [٣٩] . وتنطبق هـذه القاعدة على باقى قـلاع المدن الأخرى ، فلم تتحدث المصـادر عن اشتراك بحرية هـذه القلاع فى العمليات العسكرية [٤٠] .

وفى القاهرة كانت البحرية مكلفة بحراسـة القلعـة والسلطان فكانت قاعدتهـا ألا تخرج من القلعـة فى الظروف العادية ، وربمـا فرض عليها فى وقت الاضطرابات تقـديم بعض الخيـول مساعـدة عسكرية للسلطان مثلما حـدث سنة ٧٩١هـ [٤١] ، الا أنه فى سـاعة

---

(٣٧) القلقشندى : صبح الأعشى حـ٤ ص١٦ ، أما الطائفـة الأولى فالمقصود بهـا المماليك السلطانية ، والطائفة الثانية هى أجناد الحلقة . انظر صبح حـ٤ ص ١٥ — ١٦ .

(٣٨) القلقشـندى : صبح الأعشى حـ٤ ص ١١٩ ، ١٨٩ ، ٢٢٤ — ٢٢٥ ، المقريزى : السلوك حـ١ ق٣ ص ٩٢٨ ،
D. Ayalon. Le Regement.., p. 140.

(٣٩) القلقشندى : مصدر سابق حـ٤ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(40) D. Ayalon, Le Regement.. p. 140.

(٤١) المقريزى : السلوك حـ٣ ق٢ ص ٦٧٩ سـنة ٧٩١ هـ ، ويذكر المقريزى فى هذا المجال « وفيه تقرر على سائر المماليك البحرية والمماردة وأولاد الأمراء المقيمين بالقـاهرة ممن تعين لحفظها وحفظ القلعـة ومصر فى مدة غيبة السلطان خيولا يحملونها الى الريدانية » .

الخطر الشديد كانت البحرية تخرج لحراسة السلطان فى أثنـاء قيامه بحملات عسكرية • ولدينا مثال على ذلك ماحدث سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م عندما جاءت تهـديدات تيمورلنك الى السلطان الظاهر برقوق ، فقـد جهز الظاهر على الفور حملة عسكرية ضمت بالاضـافة الى المماليـك السلطانية ، أربعمائة من أجنـاد الحلقة ، ومائتين من البحرية لمرافقة السلطان [٤٢] • ومنذ منتصف القرن التاسع الهجرى أهملت المصـادر ذكر الأحداث المتعلقة بالبحرية سواء فى مصر أو الشام •

---

(٤٢) المقريزى : السلوك حـ٣ ق٢ ص ٨٠٣ — ٨٠٧ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ حـ٢ ص ٣٧٤ ،

D. Ayalon, Le Regemen.., p. 141.

ويبدو ان البحرية فى تلك الفترة كان يطلق عليها « المركزين » « انظر : القلقشندى : صبح الأعشى حـ٤ ص ٦٤ — ٦٥ ، حـ٨ ص٦٠ ، ابن الفرات : مصـدر سـابق مجلد ٩ حـ ١ ص ١٦٧ ، المقـريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٧٣٦ — ٧٣٧ ، ٧٤٩ ،

D. Ayalon, Le Regemen.., p. 141.

المبحث الثاني

الوافــدية فى الجيش المملوكى

الوافدية فى الجيش المملوكى

امتد نفوذ المماليك البحرية الى بلاد الشام بعد معركة عينجالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م • ودافع المماليك عن مصر والشام دفاعا بطوليا ضد المغول مننا‌حية ، وضد الصليبيين من ناحية أخرى • وقد استلزم الكفاح ضد هذين الخطرين اعداد جيش قوى • وكان طبيعيا أن يعتمد المماليك فى اعداد ذلك الجيش على عناصر من نفس جنس المماليك البحرية أى القبجاق [1] • وقد أدت العلاقات الطيبة بين الظاهر بيبرس وبين بركة خان مغول القفجاق من ناحية ، وبين بيبرس والامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج من ناحية أخرى الى تسهيل مهمة شراء المماليك القفجاق ، كما نجح بيبرس بفضل سفاراته وهداياه فى أن يحصل من الامبراطور البيزنطى على اذن لمرور سفينتين مصريتين مشحونتين بالمماليك عبر البسفور الى البحر الأسود ذهابا وايابا مرة كل سنة [2] • غير أن ذلك لايعنى عدم وجود عناصر

---

(1) D. Ayalon, The European, Asiatic Steppe, A Major rese-revoir of Power For the Islamic world, p. 50, in « The Mamluk Military Society » N. VIII.

وانظر أيضا : د. الباز العرينى : المماليك ص ٥٦ ،

(٢) د. العبادى : مرجع سابق ص ٢١٧ ،

W. Heyd, Histoire du Commerce Du Levant Au Moyen - Age. Tome 11. p. 556, « 1923 ».

وعن العلاقات بين الظاهر بيبرس والدولة البيزنطية أنظر :

ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر « تحقيق د. الخويطر » . ص١٢٩ ، المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ق٢ ص٤٧١ ، د. حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٩٣ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٦١ — ٢٦٢ ،

S. Lane Poole, History of Egypt in the Middle Ages. p. 266.

مختلفة عن القفجاق فى الجيش المملوكى ، فالهجرة الغربيـــة لشعوب المغول من استبس أوراسيا تركت أثرا قويا على دولة المماليك • وقد سبب المغول فى تقدمهم غربا اضطرابا وهياجا شديدين بين الشعوب التى غزيت أراضيها ، واعداد كبيرة من الســكان التى تشتت وطردت تحت الضغط المغولى دخلت دولة المماليك [٣] •

وتكون الجيش المملوكى من عنـــــاصر جاءت الى مصر باحــدى وسيلتين : اما مماليك رقيق بطريق الشراء ، وقد دخل هؤلاء البــلاد المصرية منــذ العصر الأيوبى ، ومنهم كون الصالح نجم الدين أيوب فرقـــة البحرية التى انبثقت منهـــا دولة المماليـــك البحرية أو الأولى ذاتهـــا ، ثم سار سلاطين المماليك على نفس النهج فى شراء المماليك الجـــدد وتربيتهم وفق نظـــام عسكرى معين ، واما لاجئون ومنفيون هاجروا الى دولة المماليك مع قبـــائلهم للبحث عن حماية من المغول • ولم تقتصر هجرة اللاجئين على أى حال على الأجنـــاس التى هددها الضغط المغولى ، بل شملت نســبة من المغول أنفســـهم الذين جاءوا يبحثون عن مأوى فى دولة المماليـــك نتيجـــة للنزاع الذى نشب بين دول المغول المختلفـــة ، وبين القبـــائل المغولية بعضها وبعض أو بين خان المغول وبعض أتبـــاعه • كما أن البعض جاء فى أعقاب مجاعات حـــدثت فى أقاليمهم ، أو لأنهم ســـمعوا عن غنى مصر وما يتمتع به المماليك من ثروة ونفوذ • وعلى العموم فان هجـــرة المغول الى مصر حـــدثت فى معظمهـــا فى أثنـــاء حكم اثنين من الســـلاطين همـــا : بيبرس البندقدارى الذى وضع الأسس الثابتـــة لدولة المماليك الأولى، والثانى هو كتبغا وهو اويراتى مغولى من الناحيـــة العرقيـــة ، وكان

---

(3) D. Ayalon, The wafidiya in the Mamluk Kingdom, p. 89, in « Studies on the Mamluks of Egypt » N. II.

طبيعيـا أن يرحب بأبناء جنسه فى مصر [٤] • وقـد أطلق المؤرخون على العنـاصر التى جاءت الى مصر لاجئة أو منفية اسم الوافدية أو الوافدين أو المستأمنه أو المستأمنين [٥] •

ومن العنـاصر التى وفدت الى بلاد الشام الخوارزميون الترك، ففى سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م استـدعاهم الصـالح نجم الدين أيوب لمساعدته ضد أيوبى سوريا وفلسطين ، وضـد الصليبيين • وفى سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م عبر عشرة آلاف مقـاتل من الخوارزميين الفرات يقودهم أربعـة من كبار قادتهم هم : الأمير حسام الدين بركة خان ، وخان بردى ، وصـاروخان ، وكشلوخان • وقـد عاث الخوارزميون فسادا فى بلاد الشـام حتى اضـطر السلطـان الى انزالهم فى غزة ووعدهم ببلاد الشام وأرسل الخلع والهدايا الى قادتهم لاسترضائهم• وقـد تمكن الصـالح نجم الدين أيوب بمساعـدة الخوارزميين من احراز النصر على أيوبى بلاد الشـام والصليبيين فى ذات العـام ٦٤٣هـ / ١٢٤٤م • وقد طمع الخوارزميون عنـدئذ فى دخول دمشق واقتسام بلاد الشـام مع الصـالح نجم الدين حسب وعده معهم ،

---

(4) D. Ayalon.., The Wafidiya.., p. 89.

وعن اثر المغول على النظام العسكرى الذى انشأه بيبرس انظر :

ابن اياس : بـدائع الزهـور جـ ١ ق ١ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ ، ومن الوظائف الجديدة التى انشـأها بيبرس : أمير سـلاح ، أمير مجلس ، راس نوبة النوب ، أمير اخور ، أمير جاندار ، أمير علم ، وانظر أيضا : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٧ ص ١٨٣ — ١٨٦ •

(٥) ابن عبيد الظاهر : مصدر سابق ص ١٣٧ ، ١٧٨ ، المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ق٢ ص ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، جـ ١ ق ٣ ص ٦٨٦ ، ٧٩٨ ، جـ٢ ق١ ص٨ ، أبو الفـداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٩ ،

D. Ayalon, iy. cit., p. 95 .

لكن السلطان لم يحققلهم رغبتهم وأقطعهم المناطق الساحلية فقط[٦] . وقد تغيرت نيـات الخوارزميين على الصـالح واتفقوا على الخروج عن طاعته ، وأخـذوا يحرضون الأيوبيين بعضهم ضد بعض لاسيما النـاصر داوود صـاحب الكرك الذى انضم اليهم وتزوج منهم . كما انضم اليهم أيضـا الصالح اسماعيل صـاحب بعلبك وبصرى وبلاد السواد ، وهاجموا دمشق وعاثوا فيهـا فسادا حتى خرجت الجيوش من مصر وأوقعت بهم الهزائم فتشتتوا فى كل الأنحاء ، ولحق بعضهم بالمغول [٧] .

وقد ظل بعض الأفراد الخوارزميين يصلون الى مصر فى فترات متعاقبـة ، من ذلك ماحدث سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م اذ وصـل الأمير سيف الدين اقتبـار الخوارزمى جمدار جلال الدين خوارزمشاه الى القاهرة ضمن الوافـدين القادمين من شيراز ، وقد استقبلهم السلطان الظاهر بيبرس استقبالا طيبا [٨] . واستمرت بقايا الخوارزميين تعمل فى الجيش المصرى فى الدولة المملوكية الى فترة متأخرة ، ومنهم الأمير بيدمر بن عبدالله الخوارزمى الذى كان من كبار الأمراء فى مصر وتولى نيـابة حلب وغيرها من الولايات الى أن توفى سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م فى سلطنة الظـاهر برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة أو الدولة

---

(٦) المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص٣١٥ — ٣١٧ ، ٣٢١ — ٣٢٢ ،

Ayalon, op. cit, p. 94 ; S. Lane Poole, op. cit., p. 231.

وانظر ايضا : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٣٢٣ — ٣٢٥ ،

(٧) المقريزى : السـلوك حـ١ ق٢ ص ٣٢٢ — ٣٢٥ ، د. البـاز العرينى : الأيوبيون ص ١٤٤٢ ، ١٤٨ ،

D. Ayalon, The wafidiya.., pp. 94 — 95.

(٨) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٢ ص٥١٢ .

المملوكية الثانيــة (٩) • وفى أثنــاء الصراع بين الأمير يلبغا الناصرى والأمير منطاش على الحكم فى مصر سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م نال منطاش تأييد الأمير محمد شاه بن الأمير بيدمر الخوارزمى وكل الخوارزميــة مما يدل على أهمية هذه المجموعة فى مصر آنذاك (١٠) •

ومن العنــاصر الوافدة أيضا الأكراد الشهرزورية ، فقد جاء فى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ثلاثة آلاف من الأكراد الفرســان من شهرزور بنسائهم وأطفــالهم هربا من جيوش هولاكو ، واســتقبلهم النــاصر يوسف الأيوبى أملا فى تدعيم قوته بهم، الا أن سلوكهم نحوه اتصف بالغطرسة والعنــاد والشغب فأعرض عنهم • ولم يجد الشهرزوريه أمامهم ســبيلا سوى الالتجاء الى المغيث عمر الأيوبى فى الكرك وكان ينافس الناصر يوسف فى السيطرة على بلاد الشام ، وقد طمع المغيث فى الاســتيلاء على غزة ودمشق بمساعدة هؤلاء الوافدين لكنه ضاق هو الآخر ذرعا منهم ، وأخيرا وجــد المغيث عمر والناصر يوسف حلا فى الاتفــاق على انزال الشهرزورية فى الأماكن الساحلية وبخاصــة غزة حتى استأمنهم الظاهر بيبرس فيما بعد وسمح لبعضهم بالحضور الى القــاهرة حيث أقطعهم الاقطاعات ، وكانت علاقة الظاهر بيبرس

---

(٩) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٣٨٨ ، المنهل الصافى حـ ٣ تحقيق د. نبيل محمد عبد العزيز ص ٤٩٨ — ٤٩٩ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٤٦١ •

انظر ايضا :

D. Ayalon, The Wafidiya.., p. 97.

(١٠) ولما ضعف موقف منطاش قبض على محمد بن بيدمر ، أنظر : المقريزى : السلوك حـ ٣ ق ٢ ص ٧٣٩ •

D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 95.

بالشهرزورية طيبة منذ أن تزوج من احدى نسائهم فى غزة [١١] •

ولم يحفظ الشهرزوريه للظاهر بيبرس حسن معاملته لهم ، فتآمروا على قتله سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م واقامة الملك العزيز عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك محله فى السلطنة ، وكان الظاهر بيبرس قد جعله أحد أمراء مصر • وقد فشلت المؤامرة وقبض على المتآمرين جميعا وأودعوا السجن [١٢] • واشترك الشهرزورية أيضا فى الفتن السياسية التى حدثت فى مصر سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م بعد قتل الأشرف خليل ابن الأمير كتبغا الذى انضمت اليه الشهرزورية مع التتار وبين الوزير الشجاعى الذى انضمت اليه الجراكسة ، وقد انتهت الفتنة بقتل الوزير الشجاعى [١٣] •

ونظرا لأن التنظيمات العسكرية التى أدخلها الظاهر بيبرس فى الجيش المملوكى تتشابه مع بعض النظم المغولية ، فقد كان من السهل على الفرسان المغول الوافدين الى سلطنة المماليك الاندماج فى الجيش المملوكى ، غير أن الظاهر كان حريصا كل الحرص على ألا يتجاوز المغول الوافدون حدودا معينة سواء فى العدد المسموح به للالتحاق بالجيش أو حتى فى الوظائف العسكرية التى يرقون اليها ، بل حتى فى الأماكن التى يمكن أن يتواجدوا فيها • وقد وصلت

---

(١١) المقريزى : السلوك حـ ١ ق٢ ص ٤١١ — ٤١٢ ، ٤١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ٧ ص ١٠١ ، وانظر : د. الباز العرينى : المماليك ص ٧٢ ،
D. Ayalon, The wafidiya.., p. 97.

(١٢) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٢ ص ٤٩٣ ، ٥٩٥ ،
D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 97 ;

(١٣) المقريزى : السلوك حـ١ ق٣ ص٨٠٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٤٤ ،
D. Ayalon. The wafidiya..p. 97.

المجموعة الأولى من المغول سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م وكان عددها حوالى مائتى شخص بخلاف النساء والأطفـــال • وكان هؤلاء جزءا من حملة أرسلها بركة خان القفجاق أو القبيــلة الذهبيــة الى هولاكو قبل أن يقع العــداء بينهما بسبب اســلام بركة • وقد أرسل بركة الى قواته يأمرها بالعودة الى بلادها فان تعذر عليها ذلك تذهب الى بلاد سلطنة المماليك • وعنــدما علم الظــاهر بيبرس بذلك كتب الى نواب الشام باكرام الوافــدية المغول والاقامة لهم بما يحتاجونه • وأرسل اليهم الخلع والانعامات ، فلما وصلوا الى القاهرة استقبلهم السلطان بنفسه وأمر بانزالهم فى دور بنيت خصيصا لهم فى منطقــة اللوق ظــاهر القــاهرة • وقــد منح السلطان بعضهم رتبــة أمير مائة ، واندمج بعضهم فى فرقــة البحرية وأفرد لهم عدة جهــات برسم مرتبهم ، وتظاهر الوافــدون بالاســلام • وقد أرسل الظــاهر الى بركة خان يعلمه بما حــدث ، وقــد شجع ذلك الاستقبال الطيب لتلك المجموعة من جانب الظــاهر بيبرس على حضور أعــداد أخرى من المغول الى مصر (١٤) •

وفى سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م قــدمت مجموعة أخرى من المغول والبهــادرية يزيد عددها على الف وثلثمائة فارس ، فــكتب السلطان بيبرس بالاحسان اليهم • وعنــدما وصلوا الى القاهرة ركب السلطان بنفسه واستقبلهم ، وقــد نزلوا عند مشاهــدته عن خيــولهم وقبلوا الأرض وهو راكب ، فأكرمهم السلطان ، وعمرت لهم مســاكن باللوق

---

(١٤) المقــريزى : السلوك حـ ١ ق ٢ ص ٤٧٣ — ٤٧٧ ، الخطط حـ ٢ ص ١١٧ — ١١٨ ، ابن كثير : البــداية والنهاية حـ١٣ ص٢٣٤ ، ٢٧٦ ، ابن عبد الظاهر : مصــدر سابق ص ١٣٧ — ١٣٨ ، ١٣٩ ، د.الباز العرينى : المماليك ص ٥٨ — ٦٣ ،

D. Ayalon, The wafidiya ..., p. 98.

فأنزلوا بهـا [١٥] . وفى سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م وصلت أعداد أخرى من المغول مستأمنين ، وقـد شعر الظـاهر بيبرس بالخوف من كثرة هجرات المغول ، فجمع أمراءه وقال لهم « أخشى أن يكون فى مجيئهم من كل جهة مايستراب منه، والرأى أن نخرج اليهم، فان كانوا طائعين عاملناهم بما ينبغى والا ... فنكون على أهبة ، من احتاج من العسكر الى شىء أعطيتـه ، وما أنا الا كأحدكم يكفينى فرس واحد ، وجميع ماعندى من خيل وجمـال ومال كله لكم ولمن يجاهد فى سبيل الله ». ثم أمر الجيش بأن يكون على أهبة الاستعداد [١٦] .

وخلال حكم الظاهر بيبرس الذى امتد من سنة ٦٥٨ — ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ — ١٢٧٧م دخل الى دولة المماليك ، مجموعة ثلاثة آلاف فارس منح السلطان بعضهم رتبـة أمير طبلخاناة ، وآخرين أمير عشرين ، وأمير عشرة ، وجعل بعضهم فى وظيفـة ساقى ، وسلحدار وجمدار، كما اندمج بعضهم فى قوات الأمراء [١٧]. ويلاحظ على الظاهر بيبرس أنه كان حريصـا على جعل العنـاصر الوافـده من المغول — لاسيما مغول فارس — فى رتب عسكرية أقل من رتب المماليك السلطانيـة ، كما حرص على انزال هؤلاء المغول فى القاهرة ولم يرسلهم الى الساحل الفلسطينى مثلما فعل مع التركمان أو الشهرزورية أو الخوارزميـة . وكان الظـاهر قـد أنزل « التركمان بالبـلاد الساحليـة لحمايتها ،

---

(١٥) المقـريزى : السـلوك حـ ١ ق ٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١ ، ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ص ١٧٧ — ١٧٩ ، وانظر أيضا :
D. Ayalon, The wafidiya., p. 98.

(١٦) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٢ ص ٥١١ ، ٥١٥ — ٥١٦ ،
Ayalon. The wafidiya.., p. 98.

(١٧) ابن كثير : مصـدر سابق حـ ١٣ ص ٢٧٦ ، ابن تغرى بردى: النجوم حـ ٧ ص ١٩٠ ،
D. Ayalon, The wafidiya... p. 98 — 99.

وقرر عليهم خيلا وعــدة ، فتجدد له عسكر بغير كلفة » [١٨] • ويبدو أن الفترة من انتهــاء حكم بيبرس الى اعتلاء كتبغا عرش السلطنة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م قــد شهدت تراخيــا فى هجرة التتــار أو المغول الوافدية • ففى سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م جاء الى مصر تسعةعشر فارسا فقط مع أولادهم [١٩] ، وفى سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م جاء الى مصر فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون حوالى ثلاثمائة فارس من التتار فأكرمهم السلطان الأشرف خليل [٢٠] •

وشهد عصر السلطان كتبغا ٦٩٤ — ٦٩٦ هـ / ١٢٩٥ — ١٢٩٦ م أكبر الموجات المغولية الوافــدة الى دولة المماليك ، ونعنى بذلك موجة الأويرات المغول ، والمعــروف أن السلطــان كتبغا نفســه من جنس الأويرات [٢١] ، لذلك كان طبيعيــا أن يرحب السلطان كتبغا بهم وأن يعمل على تدعيمهم فى الجيش المملوكى • أما أسـباب مجىء هؤلاء الأويرات هو حــدوث تطورات داخلية فى دولة مغول فارس لاسيما بعد اعتناق غازان خان مغول فارس الاسلام • ولم يجد هذا التحول قبولا من أتبــاع الديانة البوذية ، فنشبت الاضطرابات الداخلية فى مختلف الولايات ، وتمرد كثير من أمراء المغول عليه ، كما هرب بعضهم الى خارج فارس • وكان من هؤلاء الهاربين طائفــة الأويراتية التى كان يقيم معظم أفرادها فى بغــداد وديار بكر ، فجاءت الى الشام

---

(١٨) المقريزى : السلوك حـ ١ ق٢ ص ٥٦٥ ،
D. Ayalon, The Wéfidiya... p. 99.

(١٩) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٧١٢ ،
D. Ayalon, The wafidiya... p. 99.

(٢٠) ابن كثير : مصدر سابق حـ١٣ ص ٣٣٠ ،
D. Ayalon, The wafidiya.. p. 99.

(٢١) ابن كثير: مصدر سابق حـ١٣ ص٣٣٩ ، والمعروف ان الأويرات هم احدى القبــائل المغولية .

وكان عددها يزيد على عشرة آلاف بيت بنسائهم وأولادهم والمقدم عليهم طرغاى (٢٢) • وقد استقبلهم السلطان كتبغا بترحاب كبير ليس بسبب أنه من أصل أويراتى مغولى فحسب ، بل بسبب العلاقات السيئة التى كانت قائمة بين مغول فارس وسلطنة المماليك فى تلك الفترة (٢٣) • وقد ذكر بعض المؤرخين أسبابا أخرى لقدوم طائفة الأويرات الى الشام ومصر ، منها أن زعيمها طرغاى قد ساعد بايدو ضد كيخاتو ، وأن غازان بعد وصوله الى الحكم عزم على الانتقام منهم • وبعد هزيمة طرغاى وقتل عدد كبير من رجاله هرب الى دولة المماليك • ومنها أن الأويرات عاثوا فسادا فى البلاد واستولوا على قطعان الماشية فى أثناء حكم بايدو ، فأصدر غازان أمره باستعادة هذه القطعان ومعاقبة مرتكبيها بالاعدام (٢٤) •

ولم تكن طائفة الأويرات على دين الاسلام عندما جاءت مصر،

---

(٢٢) عن وصول غازان الى الحكم فى دولة مغول فارس واعتناقه الاسلام ، أنظر : البدليسى : شرفنامه حـ ٢ ص ١٥ ،

Browne, Aliterary History of Persia, Vol. III, The Tartar dominion, p. 40 ; Grousset, Lêmpire des steppes, pp. 452 — 454.

(٢٣) ابن أيبك : مصدر سابق حـ ٨ « الدره الزكية » ص٣٦١ ٣٦٢ ، المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨١٢ — ٨١٣ ، الخطط حـ ٢ ص ٢٢ — ٢٣ ، ابن خلدون : مصدر سابق المجلد الخامس حـ ١٠ ص ١١٥٩ — ١١٦٠ ، وانظر أيضا عن هجرة الأويرات : ابن العبرى : تاريخ الزمان ص ٣٧٩ ، ابن كثير : مصدر سابق حـ ١٣ ص ٣١٣ ،

Cambridge History of Iran, vol. 5, p. 381.

(٢٤) أنظر المصادر التالية : ابن الوردى : تاريخه حـ ٢ ص ٣٤٤ ، ابن الفرات : تاريخه حـ ٨ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ ، ابن أبى الفضائل : تاريخه ص ٥٨٨ — ٥٩١ ،

Howorth, History of the Mongols, Part III, The Mongols of Persia, p. 401.

فأثارت بسلوكها باقى الأمراء فى مصر ، اذ لم يصم الأويرات شهر رمضان ، كما كانوا يأكلون الخيل المقتولة بالضرب لا بالذبح هذا فضلا عن كراهية المصريين والمماليك لمغول فارس بسبب ماأحدثوه من خراب وتدمير فى البلاد الاسلامية وقد أنف الأمراء من الجلوس معهم ، وانطلقت الألسنة بذم السلطان كتبغا ، فاضطر الى ارسال عدد كبير منهم الى ساحل الشام ، كما أقاموا فى عثليث ، وفى جنوب لبنان بالبقاع ، وفى قاقون ، وفى منطقة المرج من دمشق . وقد اختلط هؤلاء بالسكان المحليين ودخلوا الاسلام وتفرقوا فى البلاد . أما من بقى منهم فى القاهرة وبوجه خاص زعماؤهم فقد أقطعهم السلطان كتبغا اقطاعات جليلة وقدمهم على غيرهم من الأمراء ، وسكن معظم الأويرات منطقة الحسينية ، وأثاروا اهتمام أمراء المماليك بجمالهم النادر ، وتزوج كثير من الأمراء من النساء الأويرات، كما اندمج معظم الأويرات ضمن مماليك الأمراء . وقد اشترك زعماء الأويراتية فى الفتن التى نشبت فى مصر بين العناصر المختلفة فى الجيش المملوكى [٢٥] .

وقد أدت سياسة كتبغا مع الأويرات وتأييده الشديد لهم الى طرده من الحكم ، كم أن زعيم الأويرات طرغاى قتل ، وبالرغم من ذلك فان الأويرات ظلت قوة فاعلة فى الجيش المملوكى تعمل على استعادة مركزها ، ففى سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م قبيل الحرب ضد غازان اشترك الأويرات فى مؤامرة واسعة النطاق لقتل الأمير بيبرس

---

(٢٥) ابن الفرات : مصدر سابق حـ ٨ ص ٢٠٣ — ٢٠٧ ، أبو الفداء ، مصدر سابق حـ ٤ ص ٣٣ ، المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٢ — ٢٣ ، ٣٠٧ ، السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٦٠ ، الدليل الشافى على المنهل الصافى حـ ١ ص ٣٦٠ ترجمة رقم ١٢٣٤ طرغاى زعيم الأويرانية ،

Howorth, op. cit., p. III; p. 401 .

الجاشنكير وسلار عنـدما كان الجيش معسكرا فى تل العجول • وكان هـدف المؤامرة النهـائى اعادة كتبغا الى الحكم مرة أخرى ، وقـد فشلت المؤامـرة وقضى عليهـا والقى القبض على عـــدد كبير من الأويرات [٢٦] • وفى سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م هربت وحدة من الأويرات العـاملة فى قوات الأمراء والتحقت بقوات الناصر محمد بن قلاوون الذى كان منفيا فى الكرك ويسعى لاستعادة عرشه [٢٧] ولكن بمجرد أن استعاد السلطان النـاصر عرشه طرد الأويراتية من خـدمته تحت ضغط المماليك السلطانيـة الذين لم يقبلوا مساواة الأويراتية بهم • وبرر المماليك السلطانيـة موقفهم من أن الأويراتيـة سبق أن خانوا أسيادهم السابقين ولا يوثق بهم [٢٨] • ومن ذلك التاريخ أخـذ دور الأويراتيـة يتلاشى وان ظل بعضهم يمثل عنصر الفساد فى القـاهرة الى قرب أواخر عصر النـاصر محمد بن قلاوون ، من ذلك اشتراكهم سنة ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م مع ألماس الحاجب نائب الغيبة فى أثنـاء سفر السلطـان النـاصر محمـد الى الحجـاز فى حفـلات الشراب مع الأحـداث • وكان ذلك سببا فى تغير السلطان على ألمـاس الحاجب فقبض عليه السلطان بعـد عودته من السفر وصادر أمواله [٢٩] •

---

(٢٦) ابن أيبـك الدوادارى : كنز الـدرر حـ ٩ « الدر الفـاخر فى سيرة الملك النـاصر » تحقيق هانس روبرت رويمر ص ١٥ ، المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨٨٢ — ٨٨٥ ،

D. Ayalon. The Wafidiya.., p. 100.

(٢٧) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٥٨ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٦١ ،

D. Ayalon, The Wafidiya.., p. 100.

(٢٨) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٨٣ ،

D. Ayalon, The Wafidiya.., p. 101.

(٢٩) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ٢ ص ٣٦٥ ، ٣٦٧ ،

D. Ayalon, The Wafidiya.., p. 100.

وهدأت حركة الوافــدين الى مصر من المغول ، واقتصرت على أعداد قليلة كل بضع سنوات وعلى التسرب الفردى فى بعض الأحيان، ففى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م وصل الى مصر حاكم آمد الأمير بدر الدين جنكلى بن البــابا ومعه عشرة أفراد • وكان الأمير جنكلى قائدا شهيرا ومقــدما كبيرا عند مغول فارس ، ومع ذلك كان ينــاصح السلطــان الناصر محمد بن قلاوون ويــدله على عورات المغول ، ومن أجل ذلك أكرمه السلطان وأعطاه امرة ألف [٣٠] • وفى سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤ م قدم الى مصر مائتان من المغول بنسائهم وأطفالهم ومقدميهم ، ومنهم بعض سلاحدارية غازان وبعض أقارب الأمير ســلار • وقد رتب لهم السلطان الرواتب وأعطى لهم الاقطاعات ، وفرق منهم جمــاعة على الأمراء [٣١] • وفى نفس العــام ٧٠٤هـ / ١٣٠٤ م وصل من القبيلة الذهبيــة رسولا من قبل نغــاى ابن أخ بركه خان وبصحبته جوارى كثيرة ومماليك بلغ عددهم أربعمائة مملوك مع هــدية للسلطان الناصر محمد بن قــلاوون ، فأخذ منهم السلطــان عشرين مملوكا فى حين اشــترى الأمراء باقى المماليــك [٣٢] • وفى أواخر شــعبان من سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧ م عبر الفرات قائد مغولى كبير هــو طاطاى فى مائة فارس بنسائهم وأولادهم ، ومروا بدمشق ثم دخلوا القاهرة فى شوال من نفس العــام [٣٣] • وفى ســنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م جاءت الى مصر ابنة أخى أزبك خان القبيــلة الذهبيــة كى يتزوجهــا النــاصر محمد

---

(٣٠) ابن كثير : مصدر سابق حـ ١٤ ص ٢٩ •

(٣١) ابن ايبــك : مصــدر ســابق حـ ٩ ص ١٢٣ ، المقــريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٥ ،
D. Ayalon, The Wafidiya.., p. 101.

(٣٢) ابن أيبك : مصدر سابق حـ ٩ ص ١٢٨ •

(٣٣) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ١٧٤ ،
D. Ayalon, The Wafidiya.., p. 101.

وصحبتها أربعمائة وأربعين مملوكا اشترى السلطان منهم مائتى مملوك، واشترى الأمراء البـاقين (٣٤) • وتجدر الاشارة هنا الى أن العناصر التى كانت تأتى الى مصر من دولة مغول القفجـاق انمـا كانت تأتى بموافقـة خان القبيلة نظرا للعلاقات الطيبة التى كانت تربط سلاطين المماليـك بهذه الدولة (٣٥) • أما العنـاصر التى كانت تأتى من دولة مغول فارس فهى عنـاصر اما هاربة من السلطات الحاكمة أو مطرودة ومنفيـة ، وذلك نتيجة لطبيعـة العـلاقات العدائيـة بين تلك الدولة وسـلاطين المماليك ، ومع ذلك فقـد حرص سـلاطين المماليك على الاستفادة من كلا الدولتين بادماج الفرسان المقـاتلين القادمين سواء من دولة مغول فارس أو القبيـلة الذهبية فى الجيش المملوكى دعمـا وتقوية له • والأمر الثـانى الجـدير بالاشارة هو أن هذه العنـاصر جميعها اندمجت بالفعل فى الجيش المملوكى ودون أن تؤثر على سياسة المماليك تجاه الدولتين •

ومن الشخصيات المغولية التى وفدت الى دولة المماليك فى عهـد النـاصر محمد بن قلاوون القـائد الشهير دمرداش بن جوبان • وقد هرب دمرداش الى مصر سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧ م ومعـه مماليكه فرارا من الخان أبى سـعيد خان مغـول فارس بعـد ثورة جوبان والد دمرداش وقتله • وقـد أثار دمرداش أو « تمرتاش » فى مصر الفتن وأخذ يحرض السلطان الناصر محمد للاسـتيلاء على بلاد الروم • ونظرا للعلاقات الطيبـة بين النـاصر محمد بن قلاوون وأبى سعيد خان مغول فارس فى ذلك الوقت فقد أمر الناصر محمد بقتل تمرتاش

---

(٣٤) ابن أيبك : مصدر سابق جـ ٩ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ •

(٣٥) انظر : د. حياة ناصر الحجى : العلاقات بين دولة المماليـك ودولة مغول القبجاق . حوليات كلية الآداب جامعة الكويت — الحوليـة الثانيـة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨١ م •

« دمرداش » ثم فرق مماليكه على الأمراء [٣٦] . وقد سعى مماليك دمرداش سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١ م الى احداث فتنـة فى مصر وقتـل كبار الأمراء المماليـك أخـذا بثـأر أستاذهم دمرداش لكن المؤامرة كشفت قبل تنفيذها وقبض عليهم حيث حل بهم العقاب [٣٧] .

ومن الشخصيات الشهيرة أيضـا التى جاءت الى مصر من دولة مغول القفجـاق الأمير قوصـون النـاصرى . وكانت المجموعة التى أحضرت قريبـة القـائد أزبك قـد جلبت معهـا الأمير قوصون ، فاشتراه النـاصر بثمانية آلاف درهم . وبالغ النـاصر فى الاحسان اليه حتى زوجه من ابنتـه سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م ولما توفى النـاصر محمد تعصب قوصـون الى المنصور أبى بكر ابن الناصر حتى سلطنه وقام قوصون بتـدبير المملكة . وبعـد توليـة علاء الدين كجك فى السلطنة أصبح قوصـون نائبـا للسلطنـة سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤٢م . ونتيجة لسياسة قوصون المناهضة لكبار الأمراءفقد ثار هؤلاء وتمكنوا من القبض عليه ونفيه الى الاسكندرية [٣٨] .

---

(٣٦) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، البدليسى : مصـدر سـابق حـ ٢ ص ٣٠ ، النويرى : نهـاية الأرب حـ ٣١ حوادث سنة ٧٢٨ ورقـة ٨٦ ، أبو الفداء : مصدر سابق حـ ٤ ص ٩٨ — ٩٩ ، ابن كثير : مصـدر سابق حـ ١٤ ص ١٣٣ ، ابن حبيب : تذكرة النبيـه حـ ٢ ص ١٨٠ ،

Grousset, op. cit., p. 484 : Cambridge Hist. of Iran, vol. 5, p. 410 — 411.

وانظر ايضـا :

Howorth, op. cit., p. III, p. 616

(٣٧) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ٢ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ .

(٣٨) ابن حجر : الدرر حـ ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور حـ ١ ق ١ ص ٤١٠ — ٤٩٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٠ ص ٤٦ — ٤٧ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه حـ ٣ ص ٣٣ — ٣٤ .

وفى سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠ م وهى سنة وفاة الناصر محمد بن قلاوون دخلت أراضى سلطنة المماليك مجموعة كبيرة من الوافدية المغول مرة أخرى بسبب غلاء شديد حدث فى بلاد الشرق . وقد كتب الناصر محمد الى نائب حلب « بتمكينهم من العبور الى حيث شاءوا من البلاد ، وأوصاه السلطان بهم ، فملأوا بلاد حلب وغيرها، وقدم منهم الى القاهرة نحو المائتى فرد ، فاختار السلطان منهم طائفة نحو ثمانين شخصا جعل بعضهم فى الطباق ، وأسكن منهم عدة فى القلعة ، وأمر منهم جماعة ، وفرق الباقى على الأمراء » ... وبانتهاء موجة سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م تكون حركة هجرة الوافدية الى دولة المماليك قد انتهت بالفعل . وقد كان لذلك أثره على أجناد الحلقة فى الجيش المملوكى ، اذ أن هذه الوحدة من الجيش قد توقفت عن استقبال امدادات بشرية ذات قدرات عسكرية بالقياس الى فرق المماليك السلطانية والأمراء المماليك الذين استمروا فى استقبال دماء جديدة [٣٩] . وهكذا أصبحت الحلقة مضطرة الى تعزيز قواتها بأعضاء جدد من أبناء الأمراء ومن السكان المحليين الذين كانوا على مقدرة عسكرية ضعيفة بالقياس الى طوائف الفرسان التى كانت ترد من قبل [٤٠] .

---

(٣٩) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ٢ ص ٥١٥ — ٥١٦ ، ٥١٧ ،
D. Ayalon.. The wafidiya.. p. 101

(٤٠) أنظر :
D. Ayalon.. The wafidiya.. p. 102.

والمعروف أن الجيش المملوكى فى مصر تألف من ثلاث فئات رئيسية هى :

أولا : المماليك السلطانية أو مايسمى أحيانا مماليك السلطان ، وهذه الفئة تنقسم عادة الى قسمين :

١ — مماليك السلطان الحاكم وهم المشتروات أو الأجلاب أو الجلبان .

=

وبالاضافة الى العناصر المغولية والكردية والخوارزمية التى وفدت الى دولة المماليك واندمجت فى جيشها لاسيما أجناد الحلقة ، فقد جاء الى سلطنة المماليك أيضا عناصر قليلة من سلاجقة الروم ونالوا حظوة عند السلاطين . وكان الظاهر بيبرس عندما استولى على مدينة قيصرية سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م قد أخذ مماليك سلطان سلاجقة الروم غياث الدين كيخسرو [٤١] . أما الشخصيات الرومية التى وصلت الى دولة المماليك بصورة فردية فمنها الأمير شرف الدين بن حسين بن أبى بكر بن سعد بن جندرباك الرومى

= ٢ — المماليك الذين دخلوا فى خدمة السلطان الحاكم من خدمة السلاطين الآخرين وهذه الفئة تنقسم بدورها الى قسمين :

١ — المماليك الذين دخلوا فى خدمة السلطان الحاكم من مماليك السلاطين السابقين وهذه المجموعة تسمى القرانيص أو القرانصة .

٢ — المماليك الذين دخلوا فى خدمة السلطان الحاكم من مماليك الأمراء اما بسبب الوفاة أو الطرد لأسيادهم ، وهذه المجموعة من المماليك تسمى السيفية .

ثانيا : مماليك الأمراء أو أجناد الأمراء .

ثالثا : قوات الحلقة أو أجناد الحلقة ، وهم مجموعات من الاحرار الفرسان . وقد وجد داخل هذه الحلقة وحدة خاصة تتكون من ابناء الأمراء والمماليك كانت تسمى أولاد الناس .

وللمزيد من الفاصيل انظر : د. الباز العرينى : المماليك ص ٥٣ وما بعدها ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص١٤ — ١٦ « طبع بيروت دار الكتب العلمية » ،

D. Ayalon, I Studies on the Structure of the Mamluk army, p. 204 in « Studies on the Mamluks of the Egypt » N. I.

II The System of Payment in Mamluk Military Society ; p. 42, in « Studies... » N. VIII.

(٤١) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ٢ ص ٣١٤ — ٣١٥ .

وقــد نال تقــدير السلطان الناصر محمد بن قلاوون [٤٢] • ومنهــا أيضا الأمير سيف الدين بكتمر الحسامى المعروف بالحاجب ، وكان قد دخل فى خدمة الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة فى عهد المنصور قلاوون • ثم أخــذ بكتمر يترقى حتى ولى الوزارة والحجوبية ونيابة غزة وصفد فى أيام الناصر محمد ، وقد توفى الأمير بكتمر سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م [٤٣] • وأخذت أعداد الروم تتزايد ، ففى سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م نسمع أن من بين مماليك الوزير علم الدين بن زنبور الدميرى خمسين مملوكا من الروم [٤٤] •

الوضع العسكرى للوافدية فى الجيش المملوكى :

لقد دخل الوافــدية دولة المماليك كرجال أحرار ، وظلوا كذلك طيلة بقــائهم فى مصر ولما كانت البداية الطبيعية للترقى الى المناصب العليا فى الجيش المملوكى هو نظــام الرق ، فان الوضــع العسكرى للوافــدية كان أقل من معظم المماليك • وبالنسبة للمغول أو التتــار فان وضعهم كان أعلى من التركمان والأكراد • ولقد وضح هذا التفوق من حقيقــة أن عددا كبيرا من هؤلاء المغــول سمح له بالاقامة فى القــاهرة ، كما أن عددا مناســبا أيضا منهم خــدم ضــمن قــوات الأمراء [٤٥] ، كما اندمج عــدد من الأويراتيــة وان كان محدودا فى المماليك السلطانيــة ، والأهم من ذلك أن صــفوة قليــلة دخلت فى الخاصكية ، فقــد ذكر المقريزى فى حوادث سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م أن

---

(٤٢) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ٢ ص ٣١٣ ، ابن تغرى بردى: النجوم حـ ٩ ص ٢٧٦ •

(٤٣) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ٢ ص ٣١٤ — ٣١٥ •

(٤٤) ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٥٤٥ •

(٤٥) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص٨١٣ ، الخطط حـ٢ ص٢٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٧ ص ١٩٠ ،
D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 90.

الشيخ على الأديراتى وكان قد أسلم وتبعه جماعة من أولاد المغول « مثل بحضرة السلطان من قلعة الجبل فى ثامن عشر ذى القعدة ومعه اخوته الأقوش وعمر وطوخى وجوبان وجماعة غيرهم ، فأحسن السلطان اليه والى من معه ورتب بعضهم فى جملة الخاصكية ، ثم نقل الى امريات منهم الأقوش وتمر وعمر وهم اخوة » (٤٦) ، كما تصاهر بعض المغول الوافدين مع الأمراء • غير أن أكثر المغول التحقوا بقوات الحلقة (٤٧) ، ومن المعروف أن وضع الحلقة العسكرى فى ذلك الوقت كان أقل شأنا من باقى الطوائف المملوكية •

وكانت فرصة الترقية أو الحصول على رتبة كبيرة أمام الوافدية محدودة وربما نادرة ، ولم تزد عادة عن رتبة أمير طبلخاناه • وطرغاى قائد الأويرات مع أهمية فرقته التى جاء على رأسها ، ومع استقبال كتبغا الطيب لبنى جنسه فانه أى طرغاى لم تزد رتبته التى منحها له كتبغا عن رتبة طبلخاناه • كما تسلم نائبه امرة عشرة فى حين حصل الباقى على اقطاعات فى الحلقة (٤٨) ، ويبدو أن هذه السياسة قد وضعها الظاهر بيبرس نفسه الذى استقبل الموجات الأولى من الوافدية ، وخشى من استيلاء هؤلاء الوافدين على السلطة فى البلاد ، وعبر عن تخوفه بقوله للأمراء « أخشى أن يكون فى مجيئهم من كل جهة مايستراب منه » (٤٩) • وقد صح ماتوقعه الظاهر

---

(٤٦) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٧٠٨ — ٧٠٩ ، الخطط حـ ٢ ص ٢٢ — ٢٣ ،
D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 90.

(٤٧) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٤٢ ، المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٢ ،
D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 90.

(٤٨) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٣ •

(٤٩) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٢ ص ٥١٥ ،
D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 90.

بيبرس ، فمحاولة السلطان كتبغا فيما بعد دفع العناصر الأويراتية الى الأمام ومساواة رؤساء الأويراتية مع الأمراء المماليك انتهت بطرده وحبس طرغاى زعيم الأويراتية وقتله ومجموعة أخرى من أكابرهم على يد السلطان حسام الدين لاجين (٥٠) .

وبرغم ماحدث للأويراتية فقد ظل نفوذهم قائما فى الجيش ، والدليل على ذلك محاولتهم الانقلاب على السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م واعادة كتبغا الى الحكم مستغلة تهديدات غازان خان مغول فارس بالهجوم على بلاد الشام ، غير أن المؤامرة فشلت وانتهت بالقبض على زعمائهم وشنق نحو الخمسين منهم(٥١) . فسياسة تحجيم وضع الوافدية فى الجيش المملوكى وحتى فى الأماكن التى ينزلون فيها تعود الى عهد الظاهر بيبرس الذى رغم حاجته الى المغول الوافدين رأى فيهم خطورة على النظام العسكرى المملوكى الذى جعل الرق المدخل الرئيسى للترقى الى المراكز العليا فى الجيش والدولة بما فيها منصب السلطنة ذاته ، وذلك وفق تدرج وظيفى ثابت ومعروف أما موضوع المقدرة العسكرية للوافدين فلم تكن هى المعيار للترقى ، والدليل على ذلك الخوارزمية الذين كانوا طبقة عسكرية من الطراز الأول واشتركوا فى المعارك الشهيرة منذ عهد الصالح نجم الدين أيوب ، ومع ذلك فانهم لم ينـدمجوا فى الجيش المملوكى فى مصر الا على نطاق محدود جدا ، وطردوا الى منطقة الساحل بعيدا عن مركز الأحداث الرئيسية فى القاهرة (٥٢)

---

(٥٠) ابن حجر : الدرر حـ ٣ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ ، المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٢ — ٢٣ .

(٥١) انظر ماسبق ص٤٣—٤٤ ، ابن أيبك : مصدر سابق حـ٩ ص١٥ ، المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨٨٢ — ٨٨٥ ،

(٥٢) انظر :
D. Ayalon, The Wafidiya.. pp. 90 — 93.

ويبدو أن السياسة التى وضعها الظاهر بيبرس لمعاملة الوافدية قد طرأ عليها بعض التعديل فى عهد ناصر محمد بن قلاوون ، فوصل بعضهم لأهميتهم الى رتبة أمير مائة مثل الأمير جنكلى بن البابا الذى وفد الى مصر سنة ٧٠٣ هـ وزميله نيروز ، فحصل كلاهما على رتبة أمير مائة ، كما أصبح للأمير جنكلى مكانة سامية فى مجلس السلطان ، فكان رأس الميمنة (٥٣) ، كذلك حصل الأمير شرف الدين حسين الرومى على امرة مائة أيضا فى عهد الناصر محمد بن قلاوون (٥٤) ، أما الأمير قوصون وهو من القبيلة الذهبية فقد وصل الى منصب نائب السلطنة فى عهد السلطان علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون (٥٥) • ويبدو أن التفسير المقبول لتلك الحالات هو حضورهم بصورة فردية أو ضمن جماعات صغيرة لا تشكل خطرا على سلطنة المماليك ، من أجل ذلك لم يجد السلطان الناصر محمد غضاضة فى منح هؤلاء الزعماء الوافدين رتبا عالية وصلت الى أمير مائة ثم ان ظروف دولة المماليك الأولى بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون وما اعتراها من ضعف بعد وفاته حيث ارتقى العرش أبناؤه وهم صغار السن ساعدت الأمير قوصون على الوصول الى ذلك

---

(٥٣) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٩٥٠ ، الخطط حـ ٢ ص ١٣٤ — ١٣٥ ، ابن كثير : مصدر سابق حـ ١٤ ص ٢٩ ،

D. Ayalon, The wafidiya., p. 93.

(٥٤) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ، ابن حجر : مصدر سابق حـ ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨ ترجمة رقم ١٨٥١ ،

D. Ayalon, The wafidiya., p. 93.

(٥٥) ابن حجر : مصدر سابق حـ ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٤ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٤٩٠ — ٤٩٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٠ ص ٤٦ — ٤٧ •

المنصب (٥٦) . أما هجرات الوافدين الضخمة فكما سبق القول لم تزد الرتب فيها عن امرة طبلخاناة (٥٧) . ومهما كان الأمر فقد كانت نظرة المماليك السلطانية الى الوافدية نظرة تحقير وازدراء ، ففى مشاجرة بين اثنين من المماليك قال أحدهما للآخر : « أنت واحد منفى وافدى ، تجعل نفسك مثل مماليك السلطان ! » وكادت تقع فتنة لولا تدارك كبار الأمراء الموقف (٥٨) .

---

(٥٦) عن أحوال دولة المماليك فى ذلك الوقت انظر : ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٠ ص ٢١ وما بعدها .

(57) D. Ayalon, The wafidiya., p. 93.

(٥٨) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص٢٢ ؛
D. Ayalon, The wafidiya.. p. 93 ;

المبحث الثالث

الصراع بين الترك والجراكسة فى الجيش المملوكى
الى نهـاية عصر الظاهر برقــوق

الصراع بين الترك والجراكسة فى الجيش المملوكى

جرت العـادة عنـد المؤرخين على تقسيم فترة حكم المماليـك فى مصر والشام الى عصرين : الأول وهو عصر المماليك البحرية أو الدولة المملوكية الأولى ، وقـد استمر هذا العصر من سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠ م الى سـنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م ، وفيهـا كانت غالبيـة الجيش المملوكى الحاكم من الترك القبجاق • ذلك أن أعـدادا غفيرة من هـذا العنصر كان قد أسرها المغول فى هجماتهم على بلاد الشرق والشمال وباعوهم رقيقـا فنقلهم التجار من بلد الى آخر ، واشترى الصـالح نجم الدين أيوب جمـاعة منهم وأسكنهم قلعـة الروضـة تجاه مدينة الفسطاط وأطلق عليهم اسم البحرية • ومع أن عدد هؤلاء البحرية لم يتجـاوز فى البـداية ألف مملوك فان الصـالح نجم الدين رجحهم على باقى العنـاصر الأخرى فى جيشه ، وجعلهم بطانتـه والمحيطين بدهليزه ، وكان هؤلاء الترك البحرية من القبجاق يعظمون أسـتاذهم الصـالح نجم الدين ويهابونه [1] •

ومنذ أواخر حكم الصـالح نجم الدين أيوب أصـبح المماليـك

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢١ ، كتـاب السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٦٠ ، جـ ١ ق ٢ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ ، ابن أيبـك الدوادرى : كنز الدرة الزكية تحقيـق أولرخ هارمان القـاهرة ١٩٧١ م ص ١٤ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين تحقيق د. سعيد عاشور ص ٢٥٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٦ ص٣١٩ — ٣٢٠ ، ٣٣١ ، د. سعيد عاشور العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٥ ، د. البـاز العرينى : المماليـك طبع بيروت ص ٥٤ — ٥٥ ،

D. Ayalon, The Mamluk Military Society, xb, Aspect of the Mamluk Phenomenon, pp. 25 — 26, London 1979.

البحرية هم العنصر الرئيسى فى صـناعة الأحداث السياسية الكبرى فى مصر ، فهم الذين ردوا الفرنج على أعقـابهم وهزموهم فى معركة المنصورة سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م وصاروا يتفاخرون بهذا العمل ويقولون « نحن خلصنا مصر والشـام بسيوفنـا من الفرنج » . وهم الذين قتلوا تورانشـاه آخر سـلاطين بنى أيوب فى مصر وولوا مكانه فى الحكم شجر الدر زوجـة الصـالح نجم الدين أيوب ، التى اعتبرت أولى سـلاطين المماليك الترك فى مصر [٢] وبعـد ذلك ازداد نفوذ المماليك البحرية بزعامة أقطاى وطغوا وتجبروا فى مصر مما دعا المعز أيبـك وزوجته شجر الدر الى العمل للخلاص منهم وكسر شوكتهم ، وبالفعل تم قتل الفـارس أقطاى فهرب كثير من زعمائهم الى خارج مصر [٣] . وبعـد قتل المعز أيبك وشجر الدر عاد نفوذ البحرية مرة أخرى على مسرح الأحداث فى مصر وأصبحت لهم الكلمة العليـا فى ظل سلطان صـغير قاصر هو المنصـور على بن عز الدين أيبك غير أن قطز أكبر مماليك المعز أيبك اسـتغل اقتراب خطر المغول على الشام وعزل المنصـور وعين نفسه سلطانا بحجة أن البـلاد فى حاجة الى سلطان قاهر يقـاتل عن المسلمين عدوهم . ونجح قطز فى جمع شتات البحرية وواجه المغول وكان النصر حليف المماليك فى المعركة الحاسمة المعروفة وهى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م ، وهـو النصر الذى كان بمثابة الواجهة الشرعية لحكم المماليك فى مصر والشام بعـد أن

---

(٢) المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص ٣٥٠ ، ٣٥٨ — ٣٦٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ٦ ص ٣٧٠ — ٣٧١ . ويلاحـظ أن المؤرخ ابن دقمـاق اعتبر أن السلطان الأول من ملوك الترك هو عز الدين أيبـك التركمانى — ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢٥٦ . وانظر عن هـذه الفترة أيضـا : سـعيد عاشـور : العصر المماليكى فى مصر والشـام ص ٤ — ١١ .

(٣) ابن كثير : البـداية والنهاية حـ ١٣ ص ١٨٥ ، وانظر مقـال فرقة البحرية فى الجيش المملوكى للباحث .

أثبت الأيوبيون فشلهم فى حمـاية البلاد • واذا كان المظفر قطز بطل النصر فى عين جالوت قـد قتل غيلة وهو فى طريق عودته الى القاهرة فان شريكه فى صنع النصر وقاتله فى نفس الوقت وهو الظاهر بيبرس. قـدر له أن يلى السلطنـة ليضع الأسس الثابتة لدولة المماليك البحرية أو الدولة المملوكية الأولى التى استمرت فى الحكم حتى سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢ م عنـدما نجح عنصر آخر من الترك غـير القبجاق هو العنصر الجركسى فى الوصول الى الحكم [٤] •

وبدأ المماليك البحرية يحكمون مصر ثم امتد نفوذهم الى الشـام فى عهـد الظاهر بيبرس ، ودافعوا عن تلك البـلاد دفاعا بطوليا ضد المغول من ناحيـة ، وضد الصليبيين من ناحيـة أخرى • وكان الظاهر بيبرس قـد بنى جيشا قويا لمواجهة تلك الأخطار واعتمد فى ذلك على عناصر من نفس جنسه الترك القبجاق ، فكانوا هم الأكثرية فى الجيش كما كانوا هم أصحاب الرتب العليا فيه [٥] • وقد ضم الجيش المملوكى

---

(٤) عن هـذه الأحداث انظر المراجع التالية : د. سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، احمد عبد الكريم : المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس ٥٣ — ٧٠ ، ٧٣ — ١٠٠ •

(٥) موطن هؤلاء الترك القفجاق فى العصور الوسطى هو حوض نهر أرتش ، ثم اتجهت فئـة منهم جنوبيا نحو حوض نهر سرداريا سيحون فى القرن الثـانى عشر / السادس الهجرى ، كما اتجهت فئـة أخرى الى شرق أوربا فى تلك الفترة ، وقـد دخل هؤلاء جميعـا فى حوزة التتـار لاسيما بعـد أن توجه باطوخان بن دوشى خان بن جنكيز خان نحو البلاد الشمالية وأخضع لسلطانه سكانها من القفجاق وغيرهم ، وغـدت مملكة باطوخان ومقرها صراى على نهر الفولجـا تمتـد من خوارزم الى أطراف القسطنطينية ومن بلاد الروس الى القوقاز وبذلك امتزج التتـار والمغول بالترك فى هذه البلاد •

انظر د. الباز العرينى : المماليك ص ٥٤ — ٥٥ •

وانظر مقال : البحرية فى الجيش المملوكى للباحث •

بالاضـــافة الى هؤلاء عنـــاصر من أجناس أخرى معضها قريبـــة من جنس الترك بل تندرج تحت نفس الاسم وان كانت من قبـــائل أخرى مختلفة عن القبجاق • ومنذ أيام الظاهر بيبرس كثرت أيضا العنـــاصر المغولية الوافـــدة الى مصر حيث انضم بعضها الى الجيش المملوكى، وانتشر البـــاقى فى مصر والشـــام ولعبوا دورا كبيرا فى الأحـــداث السياسية والمؤامرات العسكرية التى حـــدثت بين طوائف المماليك فى العصر المملوكى الأول • وقـــد بلغ عدد المغول الوافدين الى مصر فى عهد بيبرس نحو ثلاثة آلاف • وظلت جموع الوافدية المغول تصل الى مصر تباعا حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون (٦) •

على أن عنصرا جديدا برز فى الجيش المملوكى منذ عهد السلطان قـــلاوون ســـنة ٦٧٨ — ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م ، وهو العنصر الجركسى ، فقـــد أفرد قلاوون فى سنة ٦٨١هـ / ١٢٨١م ثلاثة آلاف وسبعمائة من مماليكه من الآص والجركس وجعلهم فى أبراج القلعـــة وسماهم البرجية (٧) • ويبـــدو أن اختيـــار السلطان قلاوون لهـــذا العنصر دون سواه انما يرجع الى وفرته فى الأسواق فضلا عن رخص ثمنهم بالقيـــاس الى أثمان العنـــاصر الأخرى • وقد بلغ متوسط ثمن الرأس من الجراكسة ١١٥ دينـــارا فى حين كان متوسط ثمن الرأس من الترك ١٣٥ دينارا (٨) •

وفيما يتعلق بأصل جنس الجراكسة فان علماء الأنساب يصنفونهم

---

(٦) أنظر مقـــال الوافـــدية للبـــاحث •

(٧) المقريزى : كتاب السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٧٥٦ ، د• ســـعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٣٥ ، د• حكيم أمين : قيام دولة المماليك الثانيـــة ص ١١ — ١٢ ،

D. Ayalon, The Circassians in the Mamluk Kingdom, p. 137.

(٨) د• سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٣٥ •

ضمن عناصر الترك ، وأنهم من قبيلة مشهورة هى الجركس التى تسكن فى بلاد الشمال فى التلال المحيطة بسهل القبجاق [٩] . واعتبرهم المقريزى مع اللاص والروس فى المملكة التتارية المعروفة باسم القبيلة الذهبية ، وقاعدتها صراى على نهر الفولجا [١٠] . وكان هؤلاء الجراكسة يعيشون فى فقر ومعظمهم من المسيحيين [١١]. وربما كان ابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذى أشار الى تواجد عدد منهم بين الرقيق المشترى بواسطة الصالح نجم الدين أيوب مؤسس فرقة البحرية [١٢] . وقد ظل المماليك الجراكسة طوال العصر المملوكى الأول يشعرون بضآلة قيمتهم وعدم أهميتهم بالقياس الى طوائف المماليك الأخرى برغم سعى هؤلاء الجراكسة الحثيث للاستيلاء على السلطة من الترك القبجاق .

ومن الدليل على ذلك أن الأمير قرا سنقر وكان من كبار الأمراء الجراكسة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما شق عصا الطاعة على السلطان واستجار بمهنا زعيم عرب الشام قال قرا سنقر عن نفسه لزعيم العرب مهنا « أنا فى الأصل قطعة مملوك جركسى ، رأسى ورجلى مايسوو ثلاث ماية درهم ، وايش هو أنا اذا قتلت » [١٣]

وقد اهتم السلطان قلاوون بمماليكه الجراكسة اهتماما زائدا من حيث تربيتهم ومعيشتهم حتى أنه كان يخرج فى غالب أوقاته الى

---

(9) D. Ayalon, The Circassians.. p. 136.

(١٠) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٤١ ، د. الباز العرينى : المماليك ص ٦٣ .

(١١) د. الباز العرينى : مرجع سابق ص ٦٣ ،
D. Ayalon, The Circassians pp. 136 — 137.

(12) D. Ayalon, The Circassans ... p. 137.

(١٣) ابن ايبك : مصدر سابق حـ ٩ ص ٢٢٤ .

الرحبة ليكشف بنفسه عن طعـامهم ويختبر جودته ورداءته ، وينزل عقوبات قاسية على المشرف والأستادار فى حالة تهاونهما فى العناية بالمماليك ، وكان السلطان قلاوون يقـول فى ذلك « كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به مابين مال وعقار ، وأنا عمرت أسوارا وعملتحصونا مانعة لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك » (١٤) •

وبدأ الجراسة يتسللون الى الصفوف الأولى بين المماليـك فى محاولة للوصول الى الحكم بعـد أن منحهم السلطان قلاوون وابنـه الأشرف خليل الترقيـات وأصبحوا فى وظـائف الســلاحدارية والجمقدارية والجاشنكيرية والأوشاقية • ثم زاد السلطـان الأشرف خليل من أعداد الجراكسة • واشـترى منهم حوالى الفى مملوك من أسوق الرقيق فى ثغر كافا • وكانت المماليك السلطانيـة فى عهد أبيه قلاوون قـد بلغت ستة آلاف وسبعمائة مملوك فأراد الأشرف خليـل تكميل عدتهـا الى عشرة آلاف ، ثم جعلهم طوائف ، فأفرد طـائفتى الأرمن والجركس وسماها البرجيـة وأسكنها فى أبراج القلعة وكانت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة ، كما أفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبيـة الزمردية (١٦) •

ولعل هـذا الفصل بين عنصرى الترك والجركس فى أطبـاق القلعـة قد جعل كل فريق يستجمع عنـاصره وقوته ويجعل الصراع مع الفريق الآخر هـدفا فى سياسته ، ثم حدث تطور هام فى نظام

---

(١٤) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢١٣ •

(١٥) المقـريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢١٤ ، د. البـاز العرينى : مرجع سـابق ص ٦٤ •

(١٦) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢١٤ ، د. سـعيد عاشـور : العصر المماليكى ص ١٣٧ ، المجتمع المصرى فى عصر سـلاطين المماليك ص ١٣ ، د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٣ •

تربيـــة المماليك البرجيـــة عندما سمح لهم الأشرف خليل بالنزول من القلعـــة نهارا ثم العودة ليـــلا للبيات بها (١٧) • وقد ترتب على ذلك انغماس المماليك البرجية فى الحيـــاة العامة فى مصر والاطـــلاع على خفـــايا الأمور بما فيهـــا من صراع بين الطبقـــات لاسيما بقية عناصر المماليك ، وكذلك اطلاع بقيـــة العناصر المملوكية على أحوال المماليـــك البرجية وما هم فيـــه من نعمة ومكانة عند الأشرف خليل ، وهو الأمر الذى أدى الى حسد هذه العنـــاصر للمماليـــك الجراكســـة والتربص لايقاع الشر بهم والتخطيط للخلاص منهم (١٨) •

ولم يكن الأمر ســـهلاً أمام الجراكسة كى تصل الى الصـــفوف الأولى فى الجيش المملوكى فى وقت كانت الســـيادة الـــكاملة لعنصر الترك القبجاق • وكانت المحاولة الأولى للجراكسة لكسر احتكار الترك للمناصب العليـــا بعد قتل السلطان اشرف خليل بن قلاوون ، فاتخذوا من قتله ذريعـــة للثورة والانتقام من قاتليه • وبالفعل نجح الجراكسة فى المحرم من سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م فى قتل الأمير بيـــدرا وغيره من الأمراء الذين اشتركوا فى قتل الأشرف خليل • ثم اشترك الجراكسة أيضا مع الأمير سنجر الشجاعى مع أنه تركى فى تعيين الناصر محمد ابن قلاوون • والواقع أن الوزير سنجر الشجاعى كان يعمل لصـــالحه مستخدما الجراكسة فى تحقيق أهـــدافه التى تتلخص فى ازاحة الأمير كتبغا المغولى وتهيئـــة الجو لنفسه للاستئثار بالسلطة فى البلاد • ومن أجل ذلك أنفق الشجاعى فى يوم واحـــد على الجراكسة ثمانين ألف دينـــار ، وقرر معهم أن من أحضر رأس أمير من خصومه كان اقطاعه

---

(١٧) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢١٣ ، د• ســـعيد عاشـــور : العصر المماليكى ص ١٣٧ ، د• حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٤ •

(١٨) أنظر د• سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٣٧ •

له . كما كان يستميلهم بقوله « أنتم منى وأنا منكم » فأجابوه بدورهم « مالنا خروج عنك » (١٩) .

لقد أدرك الشجاعى نوايا الجراكسة لكنه لم يقدر تماما حجم قوتهم أو خبرتهم المحدودة بالعمل السياسى والعسكرى فى ذلك الوقت، لذلك كان طبيعيا أن تفشل مؤامرته ، وأن يتلقى المتآمرون معه من الجراكسة ضربة شديدة على يد كتبغا الذى استقر نائبا للسلطنة سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٤ م فى حين أودع السجن كبار الجراكسة . ثم شرع كتبغا فى تقرير عقوبات صارمة على من تبقى من هؤلاء الجراكسة ، فأمر باحصائهم فكانوا أربعة آلاف وسبعمائة . وقد رسم لهم كتبغا بالنزول من أبراج القلعة وأن يسكنوا فى الأبراج التى فى سور القلعة ، وأمرهم بعدم مغادرة أماكنهم الجديدة وعدم الركوب ، كما فرض عليهم غرامة مشددة . أما من شك فى مؤازرته للشجاعى فقد أودعه سجن الاسكندرية ، وفى مقدمة هؤلاء الأمير بيبرس الجاشنكير ومعه بعض أفراد العشرات (٢٠) .

ولم يهدأ الجراكسة بعد تشتيتهم على يد كتبغا ، ورأوا فى

---

(١٩) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٧٩٩ — ٨٠٢ ، الصفدى : الوافى بالوفيات حـ ٤ ص ٣٥٤ ، ابن أيبك : كنز الدرر حـ ٨ الدرة الزكية ص ٣٥٣ — ٣٥٦ ،

D. Ayalon, The wafidiya.. p. 97 ;

والمعروف أن الأمير كتبغا كان مغولى من قبيلة الأويرات . انظر بحث الوافدية ص

(٢٠) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٧٩٨ — ٨٠٢ ، الصفدى: الوافى حـ ٤ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ ، ابن أيبك : الرة الزكية ص ٣٥٠ — ٣٥٦ ، ابن اياس مصدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٣٨١ — ٣٨٤ ، د.سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٣٧ — ١٣٨ ، د. الباز : مرجع سابق ص ٦٤ — ٦٥ ، د . حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٧ — ١٨ .

انزالهم من القلعـة اهانة لهم وتفتيتـا لعصبيتهم وقـوتهم ، وفى العاشر من المحرم سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م ثار حوالى ثلاثمائة من المماليك الأشرفية (مماليك الأشرف خليل) المطرودين من القلعة وهجموا على الاسطبلات وأخذوا الخيول ، كما فتحوا سوق السلاح وباب سعادة • وظلوا يطوفون فى الشارع طال الليل ، وحاولوا حصار القلعة الا أن محاولتهم باءت بالفشل وتمكن كتبغا من القضاء على ثورتهم والقبض عليهم ، فصلب بعضهم ووسط البعض الآخر • وقد أقنعت هذه الثورة كتبغا بضرورة الخلاص من بيت قلاوون نفسه طالما أن هؤلاء الجراكسة يرفعون شـعار الثأر لمقتل الأشرف خليل حتى ولو كان ذلك سـتارا يخفى نوايا الجراكسة الحقيقية • وهكذا أسرع كتبغا بعزل النـاصر محمد بن قلاوون وتنصيب نفسه سلطانا بعـد أن أقنع باقى الأمراء بضرورة وجود سلطان كبير يخضع المماليك ويقمع العربان (٢١) •

وبوصول كتبغا وهو من أصل أويراتى مغولى الى عرش السلطنة فى مصر برز عنصر الأويرات المغول فى الجيش الملكى ، وعمل كتبغا على تدعيم ذلك العنصر ودفعـه الى الصفوف الأمامية • وكانت قـد حدثت تطورات هامة داخلية فى دولة مغول فارس لاسيما بعد اعتناق الخان غازان الاسـلام وهو الأمر الذى لم يلق قبولا من أتباع الديانة البوذية فنشبت الاضطرابات فى مختلف الولايات وتمرد كثير من أمراء المغول عليه وهرب بعضهم الى خارج فارس ، وكان من هؤلاء طائفة الأويراتية التى كان يقيم معظم أفرادها فى بغداد وديار بكر ، فجاءت الى مصر وكان عـددها يزيد على عشرة آلاف نفس والمقـدم عليهم طرغاى • وقد استقبلهم السلطان كتبغا بترحاب كبير نظرا لأصـله

---

(٢١) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٣١٨ — ٣١٩ ، ابن اياس: مصدر سابق جـ ١ ق ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ، وانظر أيضا :

د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٣٩ ، د. الباز العينى : المماليك ص ٦٥ ، د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٧ — ١٨ •

المغولى ، وكان يطمع فى اتخاذهما سندا له فى الحكم ، هذا فضلا عن علاقات المماليك السيئة فى ذلك الوقت مع مغول فارس فلم ينس المسلمون مافعله المغول من تدمير وتخريب ونهب للبلاد الاسلامية فضلا عن قتل الخليفة العباسى وأفراد أسرته • غير أن طائفة الأويرات ولم تكن على دين الاسلام أثارت بسلوكها باقى الأمراء واضطر كتبغا الى طرد عدد كبير منهم الى ساحل الشام ومنطقة المرج فى دمشق • وقد كان هؤلاء الأويرات ومحاباة كتبغا لهم سببا فى طرده من السلطة واخراجه من مصر (٢٢) •

وكانت جهود كتبغا فى دفع العناصر المغولية لاسيما الأويراتية الى الأمام فى محاولة للسيطرة على الجيش المملوكى قد باءت بالفشل، كما أن محاولاته اضعاف شأن الجراكسة زادتهم تماسكا واصرارا على الانتقام من الترك فى شخص كتبغا بعد أن أيده هؤلاء • ولسوء حظ كتبغا جاء حكمه مصحوبا بانخفاض فى النيل وحدوث مجاعة ووباء فى مصر فكره الناس حكمه وتشاءموا • وهكذا تجمع العداء حول كتبغا من كل الأطراف ، وتمكن الأمير حسام الدين لاجين من قتل الأمير بتخاص العادلى والأمير بكتوت الأزرق وكانا جناحى كتبغا ، فلما سمع كتبغا ذلك وكان قادما من الشام الى مصر هرب الى دمشق فى عدد قليل من خواصه• وسيطر لاجين على الأمور وأعلن نفسه سلطانا فى المحرم من سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م فى حين نفى كتبغا الى صرخد ، كما أبعد الناصر محمد بن قلاوون الى الكرك (٢٣) •

---

(٢٢) انظر مقال الوافدية فى الجيش المملوكى •

(٢٣) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨٠٦ — ٨١١ ، ٨١٣ ، ٨١٨ — ٨٢٠ — ٨٢٦ ، ٨٣٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٥٧ — ٦٤ — ٦٧ ، ٦٨ ، ابن دقماق الجوهر الثمين ص ٣٢١ — ٣٢٣ ، ابو الفداء : مصدر سابق حـ٤ ص ٣١ — ٣٢ ، ابن الفرات حـ٨ ص١٩٣ ، =

ولم يتغير موقف الجراكسة من الترك الذين تصدر زعامتهم حسام الدين لاجين [٢٤] ، فاستمرت الاضطرابات السياسية ، فضلا عن المجاعات المتوالية وفساد العملة [٢٥] ثم ان السلطان لاجين أخطأ عندما قدم مملوكه منكوتمر على سائر الأمراء وعينه نائبا للسلطنة رغم كراهيتهم له واشتراطهم على لاجين ألا يقدم مماليكه عليهم [٢٦]. وزادت كراهية الأمراء المماليك للسلطان لاجين ونائبه منكوتمر بسبب قيامهما بروك البلاد واعادة توزيع الاقطاعات من جديد ، فوقع التذمر فى صفوف الأمراء والجند بعد أن قل نصيبهم من أرض مصر . هذا فضلا عن العداء القديم بين السلطان لاجين والمماليك

=

٢٢٠ — ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ابن حجر : الدرر حـ ٣ ص ٣٤٨ — ٣٥٠ ، الصفدى : الوافى حـ ٤ ص ٣٥٦ ، ابن ايبك : الدرة الزكية ص ٣٦٣ — ٣٦٥ ، ٣٦٦ — ٣٦٧ ، ابن كثير : حـ ١٣ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ ، ابن اياس : حـ ١ ق ١ ص٣٩١ ، ابن تغرى بردى : الدليل الشافى حـ ٢ ص ٥٥٣ — ٥٥٤ ، وانظر ايضا : د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٠٦ — ١٠٩ ، د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٨ — ١٩ .

(٢٤) انظر حكيم ص ١٨ هامش ٥ .

(٢٥) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٣١ — ٣٦ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٣٩٧ ،

William F. Tucker, Natural disasters and the Peasantry in Mamluk Egypt, in « JESHO » vol. XXIV, 1981 p. 218.

(٢٦) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨٢١ — ٨٢٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٨٨ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ابن الفرات حـ ٨ ص ٢٢٩ — ٢٣٢ ، أبو الفداء : حـ ٤ ص ٣٧ ، ابن اياس : حـ ١ ق١ ص ٣٩٦ .

الأشرفية بسبب تواطئه على قتل أستاذهم السلطان الأشرف خليل[٢٧]. وقـد شعر منكوتمر بما يدبره الأمراء فى الخفـاء فبادر هو بالتخلص منهم ، وأشـار على السلطان بارسـال حملة الى بلاد الأرمن لابعاد كبار الأمراء عن مصر والشام ، كما حرض السلطان للقبض على البعض الآخر [٢٨] وهكذا تجمع العداء حول لاجين الذى نسى مادرج عليـه الأمراء من الفتـك بسلاطينهم متى لاحت الفرصـة لهم أو استوجب الأمر ذلك — ومن الأمور الغريبـة فى سلوك السلطان لاجين تعيينـه كرجى مقـدم المماليك الجراكسة قائدا ضمن حرسه الخاص مع علمه بطموح الجراكسة للوصـول الى الحكم من ناحية ، والعداء الذى كان مستحكما بين كرجى ومنكوتمر من ناحيـة أخرى . ويبدو أن السلطان لاجين قـد شعر بعد فوات الأوان ببوادر الانقلاب عليه فاحترز على نفسه ، وقلل من الركوب ، ولزم قلعة الجبل خائفا [٢٩] .

ولأن احتيـاطات الأمن التى اتخذها لاجين جاءت متأخرة ، فلم ينفعـه الحذر من نفـاذ القدر ، فاتفق المماليك اشرفية بزعامة طغجى مع المماليـك الجراكسـة بزعامة كرجى ، واجتمعوا فى دهليز القصر الكبير ، وزاد من فرص نجاح المؤامرة أن الأمير كرجى اتفق مع الأمير

---

(٢٧) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٩٢ — ٩٥ ، ابن دقماق: مصدر سابق ص ٣٢٤ ، المقـريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨٤١ — ٨٤٦ ، ابن اياس : مصـدر سابق حـ أ ق ١ ص ٣٩٦ — ٣٩٨ ،
وانظر شرح د. سـعيد عاشور للروك الناصرى فى الجوهر الثمين ص ٣٢٤ حاشية رقم ٢ .

(٢٨) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨٣٣ — ٨٣٥ ، ٨٥٢ — ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ابن تغرى بردى : النجـوم حـ ٨ ص ٩٨ — ١٠١ ، ابن اياس : مصـدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ . وانظر ايضـا : الصـقاعى : تالى كتاب وفيـات الأعيـان ص ١٣٢ — ١٣٣ ، ابن كثير حـ ١٤ ص ٢ .

(٢٩) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ١٠٠ .

نوغيه الكرمونى ســلاح دار السلطان ، وكان الاثنان فى نوبة حراسة السلطان لاجين فتمكنا من قتله وقتل نائبــه منكوتمر فى ليلة العاشر من ربيع الآخر سنة ٦٨٩هـ ./ ١٢٩٩م • ثم تطورت الأمور الى الأسوأ عندما وقعت الحرب بين الجراكسة ومقدمهم كرجى وبين باقى عناصر الجيش المملوكى • فالأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح كان مجردا الى سيس لفتحها ثم عاد الى القاهرة فى اليوم التــالى لقتــل السلطان لاجين ، فتلقــاه طغجى بصفته نائبــا للسلطة ، فأنــكر بكتاش على طغجى قتل السلطان حسام الدين لاجين ، ثم هجمت مماليــك بكتاش على طغجى فمزقتــه • ولما علم كرجى وهو فى قلعــة الجبل بما حدث ألبس مماليكه السلاح وركب فى ألفى فارس ، فاحتشد جميع الأمراء والمقدمين وأجنــاد الحلقــة وانضموا لبكتاش وحملوا على الجراكسة وهزموهم • وقتــل فى المعــارك كرجى ونوغيــه الكرمونى وبعض خواصهما • ثم سكنت الفتنــة ، وتم الاتفــاق بين الأمراء على عودة الناصر بن قلاوون من جديد الى عرش السلطنة [٣٠] •

وهكذا فشل الجراكسة فى انقلابهم ضد السلطان حســام الدين لاجين ولم يصــلوا الى الحكم ، واضــطروا بعد قتل زعيمهم كرجى وشركائه طغجى ونوغيه وغيرهم ، وهزيمتهم على يد قوات بدر الدين

---

(٣٠) ابن أيبك حـ ٨ ص ٣٧٦ — ٣٨٢ ، المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨٥٦ — ٨٦٠ ، ٨٦٥ — ٨٦٩ ، ابن حجر : الدرر حـ ٢ برقم ١٣٠١ ص١٤ — ١٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ١٠١—١٠٥ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٢٥ — ٣٢٩ ابن حبيب : تذكرة النبيــه تحقيق د. محمــد محمــد أمين ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، ابن اياس : مصــدر ســابق حـ ١ ق ١ ص ٣٩٨ — ٤٠٠ ، ابن تغــرى بردى : الدليــل الشافى حـ ٢ ص ٥٥٦ ، ابن كثير : حـ ١٤ ص ٣ ، حوادث سنة ٦٩٨ هـ الصقاعى : تالى كتاب وفيــات الأعيان تحقيق جاكلين سوبليه ص ٥٦ — ٥٧ رقم ٨٦ ، وانظر ايضــا المراجع الآتية : د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٠٩ — ١١١ ، د. حكيم أمين مرجع سابق ص ١٨—١٩ •

بكتاش ومن معـــه من الترك ، اضـــطروا الى قبول الأمر الواقع وأن يتظاهروا بحمـــاية الشرعية المتمثلة فى بيت قلاوون وشخص السلطان الناصر محمد بن قلاوون ريثما تحين الفرصـــة من جديد ، وكان كرجى قـــد ادعى بعـــد أن قتل السلطان لاجين أنه أخـــذ بثـــأر أســـتاذه الملك الأشرف (٣١) ٠

وبرز فى تلك الفترة الأمير بيبرس الجاشنكير زعيما للجراكسة فى مواجهة الأمير سلار نائب السلطنـــة الذى يؤيده المماليـــك الترك من الصالحية والمنصورية ٠ أما باقى عناصر الجيش المملوكى فكان أبرزها فى ذلك الوقت بقايا الأويراتية من المغول ٠ وقد أرادت هذه الطائفـــة أن تستفيد من تهديدات أقربائهم مغول فارس لدولة المماليك ، فعندما اشتدت تهديدات غازان بالزحف على بلاد الشام خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م على رأس قواته ، وعند غزة أقبل الأمراء على الصيد والنزهة ، فأراد الأويراتية اســـتغلال هـــذه الفرصـــة وعزموا على اثارة الفتنـــة انتقاما لقتـــل أمرائهم فى أيام المنصـــور لاجين ، ولخلع كتبغا واخراجه الى صرخد ، وللخلاص من استبداد الجراكسة بالأمور فى البلاد ٠ وعين هؤلاء الأويراتية الامير علاء الدين قطلوبرس كبيرا لهم ، واتفقوا على قتـــل بيبرس وســـلار والناصر محمد بن قلاوون واعادة كتبغا الى الحكم ، غـــير أن المؤامرة فشلت وانتهت بالقبض على زعمـــاء الأويراتية حيث شنق منهم نحو الخمسين ٠ وقـــد أدت هذه الأحداث الى اتساع الهوة بين القبجاق الترك وبين الجراكسة ، وبين هاتين الطائفتين والسلطان الناصر محمد

---

(٣١) المقريزى : السلوك حـ ١ ق٣ ص ٨٦٦ — والمعروف أن لاجين هو الذى قتل الأشرف خليل ، وانظر أيضا د. سعيد عاشـــور : العصر المماليكى ص ١١١ ٠

لأن كل طائفـــة اعتقدت أن السلطان النـــاصر كان متفقـــا معها ضـــد الأخرى [٣٢] •

وبدأ بيبرس الجاشنكير يدفع مماليكه الجراكسة الى الصـــفوف الأولى والاستعانة بهم فى تدعيم نفوذه ، فتولى أحدهم منصب والى القاهرة سنة ٧٠١هـ / ١٣٢١م وهو الأمير بيبرس التـــاجى ، كما عين الأمير عز الدين أيبك البغـــدادى وهو من الجراكسة أيضا فى منصب الوزارة • وهكذا قويت شوكة الجراكســـة فى مصر ، وصـــارت لهم الحمايات الكبيرة • وكان طبيعيا أن يدب الحســـد فى قلوب عنـــاصر الجيش المملوكى الأخرى لاسيما الترك بزعامة سلار ، فصار بيبرس اذا أمر أحـــدا من مماليكه الجراكسة وقف أصحاب سلار له وطلبوا أن يؤمر واحـــدا منهم [٣٣] • وســـاعد على ازدياد نفوذ الجراكسة فى تلك الفترة ظهورهم بمظهر حماة بيت قلاوون والناصر محمد بوجه خاص ، وهو الأمر الذى كان مرغوبا فيـــه من مختلف الطوائف فى مصر نظرا لأنه كان يمثل الشرعية فى الحكم والاستقرار السياسى • هذا بالاضـــافة الى أن الجراكسة قاموا بدور كبير فى حمـــاية مصر والشام من هجمات غازان خان المغول بعـــد أن انتصر عليه المماليـــك فى معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م • وكان لبيبرس الجاشنكير والجراكسة دور كبير فى هذا الانتصار [٣٤] •

---

(٣٢) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨٨٢ — ٨٨٥ ، ابن أيبك : كنز الدرر حـ ٩ الدر الفاخر ص ١٥ ، د. حكيم : مرجع سابق ص ٢٠ •

(٣٣) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٨٧٢ — ٨٧٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ١٤٠ — ١٤١ ، وانظر ايضا : د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ٢١ ، د. الباز العرينى : مرجع سابق ص ٦٥ •

(٣٤) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ١٥٩ — ١٦٣ ، المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٣ ص ٩٣٠ — ٩٣٩ . وانظر ايضا : د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٤٠ — ١٤١ •

ثم انفجر الخــلاف بين الجراكســة والترك القبجــاق فى سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٧م عنــدما أهان بيبرس الأمير سيف الدين الطشــلاقى وأصر على اخراجــه من مصر الى الشام • وكان الطشلاقى من الزام الأمير ســلار النــائب وخشداشه • وازدادت الوحشه بين الأميرين الكبيرين (بيبرس وســلار) أيضا بسبب منــاصرة كل منهما لبعض موظفى الدولة ، فالأمير بيبرس أيد كاتبه التاج بن سعيد الدولة الذى تغلغل نفوذه فىأمور الأموال الديوانية المتعلقة بالوزارة والاستدارية، فى حين ناصر الأمير ســلار صــديقه الأمير علم الدين سنجر الجاولى الذى اتهمه بيبرس بالاســتيلاء على أموال السلطان • ولمــا اشــتد الخلاف توقف بيبرس عن الركوب مع سلار وصــار كل منهما يركب مع حاشيته • وتوقع النــاس الفتنة ، واســتعد الطوفان للحرب حتى تدخل باقىالأمراء ، وانتهى الأمر بتسوية فى صالح الجراكسة بعد أن تم اخراج الجاولى أميرا بطالا الى الشام [٣٥] •

وهكذا زاد نفوذ الجراكسة بزعامة بيبرس الجاشنكير فى الوقت الذى تضــاءل فيــه نفوذ السلطان الناصر محمد بن قــلاوون ووقع فريسة الخلاف بين الأميرين الكبيرين بيبرس وسلار• ثم أصبح ميزان القوى يميل لصــالح بيبرس والجراكسة بعــد أن صار معظم الأمراء منهم بالقياس الى طوائف الترك البحرية • وهم ســلار بالفرار الى اليمن والامتناع بها الا أن بيبرس الجاشنكير فطن الى ذلك ودس له من ثنى عزمه عن الهرب [٣٦] وفى ظل هــذه الظروف لم يسع السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعــد أن عجز عن فرض رأيه أو مبــاشرة مسؤولياته ، لم يسعه الا الهرب من مصر والاحتماء فى حصن الكرك

---

(٣٥) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٢٢ — ٢٦ •

(٣٦) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٣٧ — ٣٨ •

بعد أن أدرك أن عرش السلطنة مهيأ لاستقبال بيبرس الجاشنكير زعيم الجراكسة [٣٧] .

وصح ماتوقعه الناصر محمد بن قلاوون ، فعندما وصل خطابه الى مصر الذى أعلن فيه تنازله عن عرش السلطنة اجتمع الأمراء وتشاوروا فى الأمر ثم انقسموا الى حزبين [٣٨] : أحدهما يؤيد سلار وهو الحزب الذى يتكون أساسا من الترك . أما الحزب الثانى فقد تكون من الجراكسة وأيد بيبرس الجاشنكير . وكادت الفتنة أن تقع بين الفريقين لولا رجاحة عقل سلار الذى أدرك بثاقب بصره أن امر لن يدوم طويلا للجراكسة وبيبرس مادام الناصر صاحب الحق الشرعى على قيد الحياة ويتمتع بولاء مماليكه ومماليك أبيه . ثم حسم سلار الموقف عندما أعلن أنه لايصلح للسلطنة ، وأن الجدير بها هو بيبرس الجاشنكير ، فأسرع الجراكسة وقالوا بأجمعهم « صدق الأمير ، وأخذوا بيد بيبرس وأقاموه كرها » [٣٩] ذ

---

(٣٧) ابن أيبك : كنز الدرر حـ ٩ ص ١٥٥ — ١٥٦ ،
المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٤٤ — ٤٥ . وقد قال الناصر عندما وصل الى الكرك « قد أخذ بيبرس الجاشنكير السلطنة ولابد » . وانظر : ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٣٢ وما بعدها ، الصفدى : الوافى بالوفيات حـ ٤ ص ٣٦٥ ، الصقاعى : مصدر سابق ص ٥٧ — ٥٨ ترجمة رقم ٨٧ .

(٣٨) فى رأى ابن أيبك أن هذا الخطاب كان مزورا ولم يرسله الناصر . انظر ابن أيبك : كنز الدرر حـ ٩ ص ١٥٩ .

(٣٩) عبر ابن تغرى بردى عن دهاء سلار بقوله « لعب الأمير سيف الدين سلار بالجاشنكير هذا ، وحسن له السلطنة حتى تسلطن » انظر : المنهل الصافى حـ ٣ ص ٤٦٧ — ٤٧٣ . وانظر المصادر والمراجع الآتية :
المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٤٥ — ٤٦ ، ابن تغرى بردى:
=

وشرع بيبرس الجاشنكير فى تثبيت أركان سلطنته ، وأدرك أنه فى ظل ظروفـــه الصعبة لابد من استرضاء سلار زعيم الترك ، فعينه نائبـــا للسلطنة على الرغم من تردد ســـلار وامتناعه • والواقع أن سلار الذى وصفه المؤرخون بالتعقل والتؤدة قـــد بدا سياسيا واسع الحيـــلة فى امتناعه فى بادىء الأمر عن قبوله منصب نائب السلطنة، فقد أدى ذلك الى ازدياد تعلق الترك به حتى قام عليه الأمراء ليقبـــل المنصب ، كما أن بيبرس الجاشنكير اطمأن له على الرغم من ســـابق العداء بينهما ، وبدلا من الفتك به قال بيبرس :

« ان لم تكن أنت نائبا فلا أعمل أنا السلطنة أبدا » [٤٠] • وهكذا تم لبيبرس الجاشنكير اعتلاء عرش سلطنـــة المماليك فى مصر ، وهو أول السلاطين الجراكسة • ويبدو أن رفض سلار لمنصب السلطنة قام على أساس أنه من الوافـــدية ، وكانت عصبيتها قليلة وضـــعيفة فى الجيش المملوكى ، كما أن فشل كتبغا فى الاحتفـــاظ بالسلطنـــة كان لايزال ماثلا أمامه • أما الجراكسة فلم يعجبهم بقاء ســـلار فى نيابة السلطنة ، وعنفوا بيبرس الجاشنكير عنـــدما اختلت أحوال الدولة ، وذكروا له أن السبب فى ذلك الخلل انما يرجع الى بقاء سلار النائب ، وأن جميع الفساد صـــادر منه ، فانه لما فاتتـــه السلطنـــة وقام بهـــا بيبرس حســـده ســـــلار ودبر عليـــه فى الـــوقت الذى كان بيبرس فى غفـــلة [٤١] •

=

النجوم حـ ٨ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٣٧ — ٣٣٨ ، ابن اياس : مصـــدر ســـابق حـ ١ ق ١ ص ٤٢٢ ، د. ســـعيد عاشور : العصر المملوكى ص ١٤١ — ١٤٣ ، د. حكيم امين : مرجـــع سابق ص ٢٣ •

(٤٠) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٤٦ •

(٤١) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٧٠ •

ولم تكن فترة سلطنة بيبرس الجاشنكير سهلة أو موفقة فى كل أمورها ، فقد تردد أمراء الشام فى الاعتراف به سلطانا ، وقال أحد أمراء دمشق وهو الأمير سيف الدين بهادر وهو من الترك « هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا أهلكونا وراحت أرواحنا معهم ، فقوموا بنا نعمل شيئا قبل أن يعملوا بنا » [٤٢] . ورفض الأمير جمال الدين أقوش الأفرم مع كونه جركسيا أن يحلف لبيبرس قبل الرجوع الى الناصر محمد بن قدوون فى الكرك [٤٣] . ويبدو أن الأفرم وكان يشغل وظيفة النيابة فى دمشق قد شك فى امكانية نجاح الجراكسة فى تلك الفترة فى الوصول الى منصب السلطنة والاحتفاظ بها ، هذا بالاضافة الى ماكان بين الأميرين بيبرس جاشنكير وجمال الدين أقوش من تنافس ، وكان الأقرش يرى فى نفسه أحقية فى شغل وظيفة السلطنة لأنه أقدم فى الخدمة من بيبرس [٤٤] . ومهما كان الأمر فان الأفرم فى النهاية وجد أن بيبرس أحب اليه من سلار ، ولابد من مبايعة بيبرس تدعيما لموقف الجراكسة ، فأظهر فرحه وسروره بسلطنة بيبرس اذ كان الاثنان بين الأتراك كالغرباء [٤٥] . ولم يكتف الأفرم بذلك التأييد الذى منحه لبيبرس ، بل أخذ يقنع باقى الأمراء المعارضين فى الشام سواء من الترك أو الجراكسة كى يحلفوا للسلطان

---

(٤٢) ابن تغرى بردى : المنهل جـ ٣ ص ٤٣٧ ،
D. Ayalon, The Circassians.., p. 138 .

(٤٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٤٧ .

(٤٤) ذكر الصفدى أن سبب تردد الأفرم فى تأييد بيبرس هو ما كان بينهما من تنافس اذ كان الافرم أقدم فى الخدمة من الجاشنكير وكان يقول عنه « والله هذا بيبرس لما كنا فى البرج كان يخدمنى وكان يحك لى رجلى فى الحمام ويصب على الماء ، واذا رآنى والله مايقعد الا اذا قلت له اقعد » . انظر : الصفدى : الوافى جـ ٩ ص ٣٢٩ .

(٤٥) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٨ ص ٢٣٦ ،
D. Ayalon, The Circassians.., p. 138.

بيبرس • وكان مما قاله لهم فى هـذا الشأن « اعلموا أن هـذا أمر قـد انقضى ، ولم يبق لنا ولا لغيرنا فيه مجال ، وأنتم تعلمون أن كل من يجلس على كرسى مصر كان هو السلطان ولو كان عبدا حبشيا ، فما أنتم بأعظم من أمراء مصر • وربما يبلغ هذا اليه فيتغير قلبـه عليكم » (٤٦) •

واستمر الأفرم فى اقنـاع باقى أمراء دمشـق حتى حلفوا له وللسلطان بيبرس الجـاشنكير • أما باقى أمراء الشـام مثل الأمير قرا سنقر نائب حلب ، والأمير استدمر نائب طرابلس ، والأمير قبجق نائب حمـاه فقـد رفضوا متابعة الأفرم فى تأييد بيبرس الجاشنكير وأعلنوا رفضهم صراحة ، ثم اتفق الثلاثة على تأييـد النـاصر محمد قلاوون المقيم فى الكرك (٤٧) • وفى القاهرة حاول السلطان بيبرس الجاشنكير استرضاء خصومه وأتبـاعه على السواء ، فخلع يوم تقلده السلطنة على عددم كبير من الأمراء والمبـاشرين حتى قيل بأن عـدد الخلع بلغ نحو ألف وثلثمائة (٤٨) ، كما رفع بعض الأمراء الجراكسـة الى وظائف أعلى ، وأمر عددا كبيرا منهم ، وأراد أن يؤمر مماليك الأمير سلار فلم يوافق الأخير على ذلك (٤٩) •

ورغم الجهود التى بذلها بيبرس لاسترضاء الجيش المملوكى فانه لم ينجح فى الحصول على تأييـد كافة عناصر الجيش فى مصر الذى

---

(٤٦) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٣٧ •

(٤٧) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٣٧ — ٢٣٩ •

(٤٨) ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٤٢٤ ، وفى رأى ابن تغرى بردى أن عدد الخلع بلغ فى أثناء حكم بيبرس الفين ومائتى خلعة • المنهل حـ ٣ ص ٤٦٩ رقم ٧١٨ •

(٤٩) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٥٣ ، وانظر ابن أيبـك : كنز الدرر حـ ٩ ص ١٨٠ •

انقسم آنذاك الى فريقين : فريق مع الناصر محمد بن قلاوون باعتباره السلطان الشرعى ، فريق مع بيبرس الجاشنكير . وكانت الأكثرية مع النـاصر ، وهنا لم يجد بيبرس بدا من ابعـاد أعداد كبيرة من مماليك الناصر بعد أن بلغـه مكاتبة جماعة منهم له فى الكرك ، فقبض عليهم وأرسلهم الى سجن الاسكندرية ، كما نفى حوالى ثلاثمائة آخرين الى قوص ، وعنـدئذ نفرت القلوب عن بيبرس سواء من الترك أو العوام فى مصر [٥٠] . ومن سـوء حظ بيبرس أن فشت فى الناس فى فترة حكمه أمراض حادة ، وعم الوباء فى مصر كما توقف النيل عن الزيادة، وارتفعت أسـعار الحبوب ، فتشاءم النـاس منه ومن حكمه ، وتمنوا زواله ، وقـد ردد العـامة فى مصر آنذاك أغانى شعبية تتهكم فيهـا على المظفر بيبرس وحكمه [٥١] .

واستغلت المماليك الجراكسة مافيه بيبرس من اضطراب وقلق ، وسعى كل واحـد من خشداشيته كى يترقى الى أعلى منزلة ، كمـا طلبت الجراكسة من بيبرس أن يقضى على سـلار وأن يبادر بالقبض عليه قبل فوات الأوان ، واتهموا سـلار بمباطنة النـاصر محمد فى

---

(٥٠) ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٤٢٥ — ٤٢٦ .

(٥١) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٥٥ ، ابن اياس حـ ١ ق ١ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

ومن هذه الأغانى :

سلطاننا ركين ، ونائبنا دقين ، يجينا الما منين ، جيبوا لنا الأعرج، يجى الما ويدحرج .

وقـد ذكر ابن اياس أن الأمير سلار النائب كان اجرودا به بعض شعيرات فسمته العوام « دقين » تصغير دقن . وكان الملك الناصر محمد به عرج فسمته العوام الأعرج . أما بيبرس الجاشنكير فكان لقبـه ركن الدين ، فسمته العوام « ركين » بتصغير ركن .

انظر أيضا : ابن تغرى بردى : المنهل حـ ٣ ص ٤٧٠ — ٤٧١ .

الكرك (٥٢) • وفى الوقت الذى كان بيبرس مشغولا بالعمل على استقرار الأمور فى مصر كان الموقف فى بلاد الشام — باستثناء دمشق — قد اتجه اتجاها آخر فى صالح الناصر محمد ، فالأمراء الثلاثة : قرا سنقر ، وقبجق ، واستدمر أرسلوا الرسائل الى الناصر محمد فى الكرك حملها اليه الأمير محمد بن قرا سنقر • وفحوى رسائلهم أنهم يلومون الناصر لتنازله عن عرشه ، وأنهم لم يحلفوا للمظفر بيبرس، مع الوعد بالعمل على ارجاع الناصر الى الحكم مرة أخرى • وبطبيعة الأمر فقد سر الناصر بذلك كثيرا واستقبل ابن قرا سنقر بترحاب كبير ، ورد على الأمراء الثلاثة طالبا منهم استمرار المراسلات معه ، وفى نفس الوقت مراوغة بيبرس حتى تحين الفرصة للانقضاض عليه (٥٣) •

وشعر بيبرس بخطورة هؤلاء الأمراء الثلاثة عليه وما يمكن أن يدبروه له سواء فى الخفاء أو العلن ، فعمل على سرعة استرضائهم، فأطلق حماه لنائبها سيف الدين قبجق يولى ويعزل فيها كيفما شاء(٥٤) • أما قرا سنقر فقد منحه بيبرس تقليدا بنيابة حلب وبلادها « دربست » ، كما أرسل اليه خطابا يترفق له فيه قائلا : « أنت خشداشى ، ولو علمت أن هذا الأمر يصعب عليك ماعملت شيئا حتى أرسلت اليك وأعلمتك به لأن مافى المنصورية أحد أكبر منك • غير أنه لما نزل ابن أستاذنا عن الملك اجتمع الأمراء والقضاة وكافة الناس وقالوا مالنا سلطان الا أنت • وأنت تعلم أن البلاد لاتكون بلا سلطان ، فلو لم أتقدم أنا كان غيرى يتقدم • وقد وقع ذلك فاجعلنى

---

(٥٢) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٧٠ •

(٥٣) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٤٠ — ٢٤٢ •

(٥٤) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٥٠ •

واحـدا منكم ودبرنى برأيك ، وهذه حلب وبلادها « دربست » لك، وكذا لخشداشيتك الأمير قبجق والأمير استدمر » • وقد أرسل بيبرس أيضا لكل من هؤلاء الثـلاثة خلعـة بألف دينار وفرشا وقماشا بألف أخرى ، وعشرة رؤوس من الخيل ، فحلف الأمراء الثـلاثة للسلطان بيبرس الذى فرح عند سماعه النبأ وقال : « الآن تم لى الملك »(٥٥) •

واعتقد بيبرس أنه قـد رتب كل شيء واستمال الخصـوم ولم يبق الا تصـفية الحساب مع النـاصر محمد بن قلاوون والانقـلاب على البيت الذى رباه • لقـد كانت العادة أن يحمى السلطان مماليكه، ولكن الوضع فى دولة المماليك آنذاك ، كان معكوسا ، فمماليـك أسرة قلاوون كان عليهم حمـاية سلطانهم • وقرر بيبرس التخلص من ذلك الوضع وأن يعمل لحسابه الخاص ولحساب جماعته الجراكسة• واستغل بيبرس ما أشيع عن حركة خربندا خان مغول فارس للسـير الى بلاد الشام ، وكتب الى النـاصر بحركة خربندا ، وأن الحاجة الى المـال قائمة ، وطالبـه بأن يرسل الى مصر ما أخذه من أموالها وما استولى عليه من حاصل الكرك ، ومن عنـده من المماليك ، ولا يدع عنده سوى عشرة برسم الخـدمة ، وأن يرسل الخيول التى قادها من مصر •وختم بيبرس رسالتـه بالتهـديد بارسـال الجيش الى حصـن الـكرك لتخريبه (٥٦) •

ورأى النـاصر أن موقف بيبرس لا يزال هو الأقوى ، فقـرر

---

(٥٥) وكان الناصر محمد قـد أرسـل الى قرا سـنقر يقول له فى رسالة أخرى « وان حضر اليك أحد من جهة المظفر وطلب منك اليمين له فقدم النيـة انك مجبور ومغصوب واحلف » . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٤١ — ٢٤٢ وانظر أيضـا : د. سـعيد عاشـور : العصر المماليكى ص ١١٥ .

(٥٦) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٥٢ ، ابن تغـرى بردى : المنهل حـ ٣ ص ٤٦٩ .

المغـالطة فى الجواب ريثما تتحسـن الظروف • وكتب النـاصر الى بيبرس خطابا ترقق فيـه وأظهر الخضـوع والاستعطاف حتى وصف نفسه بالمملوك مع أن الرق لم يمسه قط • ومما جاء فى خطاب الناصر فى هذا الشأن : « المملوك محمد بن قلاوون يقبل الأرض وينهى أنه ماقصـد الاقامة الا طلبـا للسلامة ، وان مولانا السلطان الذى هو ربانى وما أعرف لى والدا غيره • وكل ما أنا فيـه فمنه وعلى يديه ، والقدر الذى أخذته من الكرك لأجل مالابد لى فيه من الكلف والنفقة• وقد امتثلت المرسوم الشريف وأرسلت نصف المبلغ الذى تأخر عندى امتثالا لأمر مولانا السلطان • وأما الخيل فقـد مات بعضها ولم يبق الا ما اركبه • أما المماليك فلم أترك عندى الا من اختار أن يقيم معى ممن هو مقطوع العلائق من الأهل والولد ، فكيف يحل لى أن أخرجهم، وما بقى الا احسان مولانا السلطان » • وخلع النـاصر على رسـوله بيبرس وأرسل معه مائتى ألف درهم (٥٧) •

ولم يقتنع بيبرس بما جاء فى رسـالة النـاصر محمد والأموال التى أرسلها ، وأصر على تجريده من أى قوة قد تساعـده فى العودة الى الحكم • وزين الجراكسة لبيبرس هـذا العمل وحسنوا له القبض على النـاصر ، فأرسل بيبرس رسوله الأمير مغلطاى الى الكرك مكررا طلبـه بضرورة ارسـال المماليك الموجودين عنده ، وأن يكف عن مكاتبة أمراء مصر ، وهدده بنقله من الكرك الى القسطنطينية كما فعل الأشرف خليل مع أولاد السلطان الظاهر بيبرس • وخاطب مغلطاى النـاصر محمد بخشونة وأغلظ عليه القول ، فاشتد حنق الناصر وعاقب مغلطاى بالحبس ثم رده مقهورا • وأسرع النـاصر بمكاتبة الأمراء الموالين له فى الشام ومصر ممن يثق فيهم ، واستعطفهم قائلاً : « أنتم مماليك

---

(٥٧) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٥٢ — ٥٣ •

أبى وربيتمونى ، فاما أن تردوه عنى والا أسير الى بلاد التتار » [٥٨].
وعنــدما علم المظفر بيبرس بما جرى لرسوله مغلطاى من اهانة اشتد قلقه وشرع فى تجريد قواته لارسالها الى الكرك [٥٩] .

وأسرع نواب الشــام الموالون للنــاصر وفى مقــدمتهم الأمير قرا سنقر باعلان تأييدهم للناصر ، وكتب له قرا سنقر قائلا : « بأنى مملوك السلطان فى كل مايرســم به » [٦٠] . أما الأمير الأفرم نائب دمشق فقــد رفض تأييد النــاصر بحجــة أنه سبق أن تنــازل عن العرش [٦١] ، وأرسل اليه يقول : « ان كان العسكر المصرى معك فنحن أيضا فى خدمتك ، والا فلا طــاقة لنــا بالمصريين ، ولا نرى ســفك دماء الاســلام ، ونحن تبع للمصريين والسلام » وشدد الأفرم من قبضته على بلاد الشام ، وأمر بالمنــاداة فى سكان دمشق « سلطانكم المظفر ، ومن تكلم فيما لا يعنيه شنق » [٦٢] .

وفى تلك الظروف الصعبة التى يواجهها بيبرس شــاء سوء حظه أن يواجــه مؤامرة لاغتيــاله قادها الأمير سيف الدين نوغاى بعد أن باطن سلار النــائب وكان من الزامه . ومع أن المؤامرة قــد فشلت الا

---

(٥٨) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٥٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ المنهل حـ ٣ ص ٤٦٩ — ٤٧٠ ، ابن اياس: مصدر سابق حـ ١ ق١ ص ٤٢٦ — ٤٢٧ وأنظر أيضا : د. سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ١١٦ .

(٥٩) ابن تغرى بردى : المنهل حـ ٣ ص ٤٧٠ — ٤٧١ .

(٦٠) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٤٥ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ق١ ص ٥٦ — ٥٧ .

(٦١) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٤٦ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ق١ ص ٥٧ — ٥٨ ، ابن أيبك : كنز الدرر حـ ٩ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٦٢) ابن أيبك : كنز الدرر حـ ٩ ص ١٦٩ — ١٧٠ سنة ٧٠٩ هـ .

أنهـا انتهت بهروب نوغاى ومماليكه ومؤيديه بقصـد اللحاق بالناصر محمد بن قلاوون فى الكرك (٦٣) • وفشلت الحملة التى أرسلها بيبرس خلفهم لاعادتهم ، بل على العكس من ذلك أخذ باقى الأمراء والمماليك السلطانيـة فى الانسحاب من مصر والتوجـه الى الـكرك لخـدمة النـاصر محمد (٦٤) •

وزادت الاضطرابات فى مصر بنشوب حرب بين مماليك السلطان بيبرس الجـاشنكير من جانب ، والمماليـك المنصـورية والأشرفيـة والأويراتية الذين قرروا تأييد النـاصر محمد من جانب آخر • وقـد عظم الخطب على السلطان بيبرس واجتمع اليه الجراكسة وحرضـوه على الأمير سـلار نائب السلطنـة فى مصر بحجة أنه مصدر الفساد كلـه ، ولـكن بيبرس رفض طلبهم تجنبـا للمزيـد من الفـتن والاضطرابات (٦٥) • وزاد من سوء موقف بيبرس فشل الحملة الثانية التى جردها للتوجه الى الكرك بسبب هروب معظم الأمراء ومماليكهم الى الناصر • كما لم تجد البيعة الجـديدة التى عقدها الخليفة العباسى للسلطان المظفر بيبرس فى اقنـاع الأمراء ومماليكهم بالوقوف ضـد النـاصر محمد (٦٦) •

ولجأ بيبرس من جـديد الى أسلوب تهـديد النـاصر محمد ،

---

(٦٣) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٤٨ — ٢٥٠ ، المقريزى: السلوك حـ٢ ق١ ص ٥٩ — ٦٠ — وانظر د. سعيد عاشـور : العصر المماليكى ص ١١٧ •

(٦٤) ابن دقماق : مصـدر سابق ص ٣٣٨ •

(٦٥) المقريزى : السلوك حـ٢ ق ١ ص ٦١ ، ابن تغـرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ •

(٦٦) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٦١ — ٢٦٣ ، المقريزى: السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٦١ — ٦٢ ، وأنظر د. عاشور : العصر المماليكى ص ١١٧ •

فأرسل اليه خطابا شـديد اللهجة جاء فيه : « ان ساعة وقوفك على هذا الكتاب وقبل وضعه من يدك ترسل لنا نوغاى ومغلطاى ومماليكهما، وتبعث المماليك الذين عندك ولا تخل منهم عندك سوى خمسين مملوكا، فانك اشتريت الكل من بيت المال ، وان لم تسيرهم سرت اليك وأخذتك وأنفك راغم » (٦٧) غير أن الناصر لم يهتز من هـذا الخطاب بل استمر فى اظهار مابه من ضعف وولاء للسلطان المظفر بيبرس (٦٨) وفى نفس الوقت أخـذ يجهز قواته للتوجـه الى دمشق • وبالفعل نجح الناصر محمد فى دخول دمشق واعادة الخطبـة له يوم الجمعة الموافق الثانى والعشرين من شعبان سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٨م ودخل فى طاعته نائبهـا الأمير الأفرم بعـد أن كان قـد هرب ثم حصل على أمانه من الناصر محمـد (٦٩) •

وعندما وصلت الأخبـار الى المظفر بيبرس فى القـاهرة بنجاح النـاصر فى دخول دمشق دون مقـاومة وتأييـد كافة أمراء الشـام له ، أدرك عنـدئذ المظفر انتهـاء دولته ، وفكر فى الوسيلة التى ينجو بهـا بنفسه ، وبوجه خاص بعد أن تخلى عنه خواصه من الأمراء مثل الأمير برلغى زوج ابنتـه ، ولم يعد باقيـا معه سوى عدد قليل من الجراكسة الذين أشـاروا على بيبرس بضرورة التخلص من سـلار بصفته زعيم الترك ونائب السلطنـة • غير أن بيبرس لم يجد مفرا من الاستسلام فأرسل الى النـاصر كتابا يستعطفه فيه قائلا : « والذى أعرفك بأنى قـد رجعت أقلدك بغيك ، فان حبستنى عددت ذلك خلوة،

---

(٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٥٤ •

(٦٨) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ •

(٦٩) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٦٧ — ٦٨ ، ابن تغـرى بردى : النجـوم حـ ٨ ص ٢٦٤ — ٢٦٨ ، ابن ايبـك : كنز الدرر حـ ٩، ص ١٧٢ — ١٧٤ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٤٢٨ •

وان نفيتنى عددت ذلك سـياحة ، وان قتلتنى كان ذلك لى شهادة » وطلب من النـاصر أن يمنحه الاقامة فى الكرك أو صهيون أو حماة • ثم استولى بيبرس على مافى الخزائن من أموال وخيول وأشهد على نفسه بالخلع من السلطنة وهرب فى سبعمائة مملوك من أنصـاره ، وجماهير العـامة فى القاهرة تشيعه بالسباب والشتائم • وقـد فكر بيبرس فى الهرب الى اليمن عن طريق عيذاب والحجاز ، واتخاذ اليمن قاعـدة له ، غير أن مشروعه فشل (٧٠) وفى يوم الجمعة ١٩ من رمضان سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٨م خطب من جديد على منابر القاهرة للناصر محمد وأسقط اسم المظفر وزال ملكه وانتهى أمره الى القتل بين يدى الناصر الذى عاد الى تولى سلطنـة مصر والشام للمرة الثالثـة • وبذلك تم انتصار الترك على الجراكسة فى هذه الجولة • وفقد الجراكسة الأمل فى الوصول الى الحكم مرة أخرى فى تلك المرحلة (٧١) •

وكانت المهام الرئيسية أمام الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته الى الحكم مرة ثانيـة هى تثبيت حكمه تثبيتـا قويا والسيطرة على زمام الأمور بنفسه فى الدولة ، والانتقـام من الأمراء الذين أذلوه فى السابق ، وكذلك تقليم أظـافر الأمراء الجراكسة حتى لايتكرر ماحدث فى الماضى من انقـلاب عليه وانتزاع السلطنة منه مرة أخرى • وكان أول مابدأ به بعـد قدومه من الكرك القبض على الأمراء الجراكسـة وغيرهم فى يوم واحـد وعدتهم زيادة على ثلاثين أميرا • فمنهم من أتلفه بالخنق ، ومنهم من غرقه فى النيل ، ومنهم من نفاه ، ومنهم من

---

(٧٠) ابن أيبك : كنز الدرر حـ ٩ الدر الفاخر ص ١٩٧ •

(٧١) ابن ايبـك : كنز حـ ٩ الدر الفـاخر ص ١٨٧ — ١٨٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٦٨ — ٢٧١ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٦٩ — ٧١ ، ٧٨ ، ٨١ ، ابن اياس : مصـدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٤٢٩ — ٤٣١ — ٤٣٤ •

سجنه فأقام مسجونا عشرين سنة فما دونها (٧٢) واذا كان النـــاصر قــد تخلص من بيبرس الجاشنكير بالقتل ، فقــد أودع سلار السجن حتى مات من الجوع ، كما صــادر أمواله وقبض على اخوته بتهمــة التآمر على قتل السلطان ، كذلك تم القبض على ثلاثمائة من كبار أمراء بيبرس الجــاشنكير وفرقهم النــاصر على أمــرائه (٧٣) • ولم يأمن الجراكسة • الذين أيدوا النــاصر على أنفسهم بعــدما رأوا تشتيت زملائهم ، وعلى ذلك قرر قرا سنقر واقوش الأفرم وهمــا من كبــار الجراكسة سنة ٧١١هـ / ١٣١٠م الى دولة مغول فارس بعد أن شعرا بنية الغدر عند الناصر تجاههما وعزمه القبض عليهما (٧٤) •

وكان الناصر محمد قــد جرد حملة من خمسة آلاف فارس من مصر وأرسلها الى الشام للقبض على قرا سنقر وجمال الدين الأفرم ، غير أن أخبــار الحملة تسربت قبل رحيلهــا الى الأميرين عن طريق عيونهما فى الجيش وبخاصــة قرا سنقر الذى كان له عيون فى مصر تمده بالأخبــار أولا بأول ، وكان خدابندا خان مغول فارس يــدرك أهمية هذا الأمير ويمنيه بملك بلاد الشام ، لذلك كان من رأى الأفرم الاستيلاء على بلاد الشــام ومحاربة الناصر فى حين فضل قرا سنقر

---

(٧٢) المقــريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٥٢٤ ، ابن ايبــك : كنز الدرر حـ ٩ الدر الفاخر ص ١٩٦ •

(٧٣) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٧٦ — ٧٧ ، ص ٨١ ، ٨٦ — ٨٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٩ ص ١٦—١٨ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٤٢ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٤٣٥ — ٤٣٨ ، وانظر أيضا: د. عاشور العصر المماليكى ص ١١٩ ، د. حكيم أمين: مرجع ســابق ص ٢٧ •

(٧٤) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٣٢ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٤٧ ، ابن اياس مصدر سابق حـ ١ ق ١ ص ٤٤٠ •

اللجوء الى المغول وتحريضـــهم على مهاجمـــة مصر [٧٥] • وبالفعـل استقبل خدابندا خان المغول قرا سنقر والأفرم بترحاب كبير وأقطعهما الاقطاعات الجليلة ، فحسنا له الاستيلاء على بلاد الشام ، وقد كان تحريض قرا سنقر هو السبب فى الحصار الذى فرضـــه المغول على الرحبة عام ٧١٢هـ / ١٣١١م [٧٦] •

وشرع الناصر محمد بن قـــلاوون بعـــد عودته الى الحكم فى زيادة عدد مماليكه الترك لمواجهة الجراكسة ، فاشترى عددا كبيرا من بلاد أزبك وبلاد توريز ، وبلاد الروم ، وبغـــداد • وبعث فى طلبهم وذل المكافآت السخية للتجار فى حملهم اليه ، ودفع فى ذلك أموالا عظيمة • ثم أفاض النـــاصر على مشترواته من المماليك العطايا والمنح السخية دون أن يراعى فى ذلك عادة أبيه ومن كان قبله من السلاطين فى تنقل المملوك فى أطوار الخدمة حتى يتـــدرب ويتمرن ، بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة ، فأتاه من المماليـــك عدد كبير • وقـــد بلغ ثمن المملوك فى أيامه مائة ألف درهم • وقـــد رفع السلطان الناصر بعد عودته مباشرة للحكم سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٨م اثنين وثـــلاثين مملوكـــا من مماليكه الى مرتبـــة الامارة ، وفى عام

---

(٧٥) ابن ايبك : كنز الدرر حـ ٩ الدر الفـــاخر ص ٢١٨ ـــ ٢٢٧ ، ٢٥١ ـــ ٢٥٦ وقد ندم قرا سنقر على تخليه عن نصرة المظفـــر بيبرس والجراكسة بنى جنسه ، فعنـــدما جرى القبض على بيبرس وقيد بالحديد شق ذلك على قرا سنقر فألقى الكلفتاه عن رأسه الى الأرض وقال « لعن الله الدنيـــا فياليتنا متنـــا ولا رأينا هـــذا اليوم » • أنظر : المقريزى : السلوك حـ ٢ ق ١ ص ٨٠ •

(٧٦) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٣٢ ـــ ٣٣ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ق١ ص ١١٥ ، ابن ايبك : كنز حـ ٩ الدر الفاخر ص٢٢٩ •

٧١٢هـ / ١٣١١م أمر أيضا فى يوم واحد ستة وأربعين أميرا (٧٧) .

ولم تؤد اجراءات النـاصر محمد بن قلاوون الانتقـامية ضـد مماليك المظفر بيبرس الى تصفية الجراكسة تمـاما ، بل دفعت هؤلاء الى التكتل من جديد وتدبير المؤامرات ضد النـاصر محمد . من ذلك ماحاوله الأمير بتخاص المنصورى الجركسى بالاتفـاق مع الأمير بكتمر الجوكندار على عزل النـاصر محمد بن قلاوون وتولية موسى بن الملك الصالح على بن قلاوون عرش السلطنة ، وأيدت مماليك المظفر بيبرس هـذه المحاولة ، غير أن المؤامرة فشلت وانتهت بالقبض على بتخاص وكثير من المماليك الجراكسة (٧٨) . وظل الناصر محمد بن قلاوون يتتبع مماليك بيبرس الجاشنكير وسلار والمماليك الجراكسة بالنفى والطرد ، كما دأب على ارسال الفداوية لقتل قرا سنقر الهارب لدى المغول ، غير أن محاولاته باءت بالفشل . وأخيرا اهتدى الناصر الى وسيلة يقطع بها أخباز المماليـك الجراكسة وبوجه خاص مماليك بيبرس الجاشنكير وهى اعادة روك البـلاد فيما عرف بالروك الناصرى . وفى هذا الروك أفرز لخاص السلطان من أرض مصر عدة نواح مما كان فى اقطاعات الجراكسة وهى الجيزة وأعمالها ، والكوم الأحمر ، ومنفلوط ، والمرج والخصوص وغير ذلك مما بلغ عشرة قراريط من أصل أربعـة وعشرين قيراطا جملة أراضى مصر . ثم نظر السلطان فيما كان بيـد بيبرس الجاشنكير وسلار نائب السلطنة من البلاد فأخذ ماكان باسم كل منهما

---

(٧٧) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٤ السلوك جـ ٢ ق١ ص٧٧ ، ١١٧ ، جـ ٢ ق٢ ص ٥٢٤ — ٥٢٥ ، ابن تغـرى بردى : النجوم جـ ٩ ص ١٣ ، ٣٤ ، ١٦٦ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٦٦ ، وأنظر : د. حكم أمين : مرجع سابق ص ٢٦ — ٢٧ .

(٧٨) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق١ ص ٩١ — ٩٢ ، ابن تغـرى بردى : النجوم جـ ٩ ص ٢٦ ، ابن حجر : الدرر الـكامنة جـ ٢ ص ٥ ، ١٨ — ١٩ ، ابن تغـــرى بردى : المنهـــل جـ ٣ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ ، ص ٣٩٨ — ٤٠١ .

وباسم حواشيه ، ولم يدع من ذلك شـيئا مما كانوا قد وقفوه حتى حله وجعل الجميع اقطاعات . وكان لبيبرس وسلار متعلقات كثيرة فى بيت المال وفى الأعمال كالجيزة والاسكندرية من متاجر وحمايات فارتجع ذلك كله وأبطله (٧٩) .

وظل النـاصر محمد بن قلاوون طوال حكمه يعمل على استئصال شأفة المماليك الجراكسة والحد من خطورتهم ، فواصل سياسة القبض على أمـرائهم مثل الأمير أيدمر اليونسى ، والأمير بيبرس العلمى ، والأمير طشتمر أخى بتخاص ، وقـد كان هؤلاء من كبار حاشية المظفر بيبرس الجاشنكير ومن رؤوس الجراكسة . ولم يفرج عن هؤلاء الا سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤ م بعـد أن تقدمت بهم السن ولم يعد لهم شوكة أو خطورة على حكمه (٨٠) . كما لم يأمن الناصر محمد جانب مماليكه الذين سبق أن كانوا فى خدمة المظفر بيبرس الجاشنكير ، فعمل على الخلاص منهم بعد أن اتهمهم بالتآمر ضده ، من ذلك مافعله مع الأمير سيف الدين بكتمر الساقى وابنه سنة ٧٣٣هـ اذ شاعت الأخبـار بأن السلطان قتلهما بالسم . وبالفعل فقـد اتضح للسلطان الناصر فيما بعـد وجود مكاتبات من ألماس الحـاجب الى بكتمر السـاقى تفيـد بتـدبير مؤامرة للاستيلاء على القلعـة فى غياب الناصر للحج سنة ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م ، وكان بكتمر مرافقا للسلطان فى سفره (٨١) .

---

(٧٩) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق١ ص ١٤٦ ، الخطط حـ ١ ص٩٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٤٢ ، ٥٣ — ٥٤ .

(٨٠) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ١١٠ .

(٨١) ابن تغرى بردى : النجـوم حـ ٩ ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٣٠٠ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ق٢ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ابن‌حجر : الدرر حـ ٢ ص ١٩ـــ٢٠ ، ابن اياس : مصـدر سابق حـ ١ ق١ ص٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ابن تغرى بردى : المنهل حـ ٣ ص ٣٩٠ — ٣٩٧ .

وزاد السلطان النــاصر من احتياطــات الأمن فى حالة سفره ، فخشية الانقلاب عليه أمر النــاصر فى حالة غيابه عن مصر ألا يغادر الأمراء اقطاعاتهم ولا يجتمع أمير مع أمير • وبالنسبة لنواب الشــام كتب لهم بأن يستقر كل نائب بمقر مملكته ولا يتوجه أحدهم الى صيد الى حين عودة السلطان من سفره (٨٢) • وبرغم كل هــذه الاجراءات التى اتخذها النــاصر وتدل على مدى قلقه وخوفه على عرشه نتيجــة القبض على معظم الأمراء الجراكسة الذين كانوا يمثلون أكثرية الجيش المملوكى آنذاك ، برغم ذلك فقد تعرض الناصر سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢١م للاغتيــال من قبل الفداوية الذين أرسلهم قرا سنقر الأمير الجركسى الهارب لدى المغول • وقــد فشلت المؤامرة وقتل الفــداوية الا أن السلطان بالغ بعــدها فى الاحتراس على نفسه فمنع عند ركوبه الى الميدان المتفرجين من الجلوس فى الطرقات ، والزم النــاس بغلق طاقات بيوتهم (٨٣) •

ونتيجة للاجراءات القمعية المتلاحقة التى مارسها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ضد الجراكسة من جهــة ، ولسياسته فى الاكثار من شراء المماليك الترك من جهة أخرى سكنت حركة الجراكســة وكسرت شوكتهم بقيــة فترة حكمه الى أن توفى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م ، كما لم تظهر أيضا مقاومة فعالة للجراكسة ضد الترك خلال عهد السلاطين كجك ، أحمد ، اسماعيل ، من أبناء الناصر محمد •

وعاد النفوذ الجركسى الى الظهور فى عهد السلطــان شــعبان ٧٤٦ — ٧٤٧ هـ / ١٣٤٥ — ١٣٤٦ م ، فالأمير غرلو الجركسى (٨٤) تولى

---

(٨٢) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق١ ص ١٩٦ — ١٩٧ •

(٨٣) المقريزى : السلوك حـ٢ ق١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ •

(٨٤) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق٣ ص ٧٤٧ ، وأنظر ترجمتــه فى الوافى بالوفيات حـ ٩ ص ٢٩٤ — ٢٩٦ •

وظيفـــة شاد الدواوين ، واستحدث ضرائب جديدة على كل من يتولى وظيفـــة ، وطبق ذلك المبدأ أيضا فى المقايضات والنزول عن الاقطاعات وجمع من ذلك مبـــالغ ضخمة قـــدمها للسلطـــان ؛ ونال بذلك الحظوة لديه . وقـــد هم السلطان بأن ينعم على غرلو بامرة مائة ، وتوليـــة الوزارة ونيـــابة دار العدل الا أن كبار الأمراء الترك وعلى رأســـهم الأمير أرغون العلائى نائب السلطنة اعترض على ذلك (٨٥) .

واستطاع الأمير غرلو أيضا أن تكون له حظوة عنـــد السلطان المظفر زين الدين حاجى بعد عزل السلطان الكامل شعبان ، وصار غرلو يدخل مع الخاصكية فاذا أشـــار بشىء قبل السلطان قوله . ولما ساءت سيرة المظفر فى الحكم بسبب لهوه حتى أنكر عليه الأمراء ذلك ، أخذ غرلو يحرض السلطان على الفتك بهم وهونهم عليه حتى تمكن الاثنان من الفتـــك ببعض الأمـــراء مثل الأمير اقسنقر النـــاصرى ، وملكتمر الحجازى ، فخلا الجو لغرلو وزادت مكانته عند السلطان . وبالاضافة الى ذلك فان السلطان بتحريض غرلو أيضا وتشجيعه أخذ فى استمالة المماليك الجراكسة ، وأمر جمـــاعة منهم ، وأنعم على غرلو باقطـــاع الأمير ايتمش عبد الغنى وتقدمته ، فأصبح غرلو هو المشـــار اليه فى الدولة وعظمت نفسه الى درجة كبيرة (٨٦) .

وتربص الأمراء بغرلو حتى تم القبض عليه وقتله ، فى حين عاد السلطان المظفر حاجى الى لهوه وعبثه واجتماعه مع العـــامة مما سبب

---

(٨٥) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق٣ ص ٦٨٧ — ٦٨٩ — ٦٩٠ .

(٨٦) المقـــريزى : السلوك حـ ٢ ق٣ ص ٧٢٢ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ — ٧٣٤ ، وانظر ايضا : الخطط حـ ٢ ص ٢٤١ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٠ ص ١٥٨ — ١٦١ ، أبو الفداء : المختصر حـ ٤ ص ١٤٩ ، ابن‌حبيب: تذكرة النبيـــه حـ ٣ ص ٩٨ — ٩٩ ،

D. Ayalon, The Circassians.., p. 138.

ثورة أمراء المماليك عليه وقتله وتولية الحسن بن محمد بن قلاوون الذى لقب بالناصر بدر الدين أبو المعالى وذلك فى رمضان ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م واستغل الأمراء الترك هذه الظروف وشرعوا فى تصفية المماليك الجراكسة الذين كان المظفر حاجى قد قربهم بسفارة غرلو وتشجيعه ، وكان أمر الجراكسة فى عهد المظفر قد ازداد حتى صار منهم أمراء وأصحاب اخباز ، وتميزوا بكبر عمائمهم ، فأخرجوا منفيين خروجا فاحشا وهربوا الى البلاد الشامية (٨٧) . ويبدو أن تصفية المماليك الجراكسة لم تكن كافية فى هذه الحركة ، ففى خلال شهر ذى القعدة من نفس العام ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م تراسل المماليك الجراكسة مع الأمير حسين بن الناصر محمد بن قلاوون على أن يقيموه سلطانا ، غير أن مؤامرتهم تم كشفها وقبض على أربعين منهم ، وأخرجوا على الهجن مفرقين الى البلاد الشامية ، ثم قبض على ستة ، وضربوا قدام الايوان بالقلعة ضربا مبرحا ، وقيدوا وحبسوا بخزانة شمايل . وتم الاتفاق على أن الأمراء اذا انفضوا من خدمة الايوان دخل أمراء المشورة المقدمين الى القصر دون من عداهم من بقية الأمراء وذلك منعا لحدوث مؤامرة جديدة (٨٨) .

وكانت أحوال البلاد المصرية قد ساءت فى تلك الفترة ، وزاد تنافس الأمراء الترك وانقسامهم وسعيهم الى تولى المناصب العالية ، فى الوقت الذى لم يكن السلطان حسن سوى العوبة فى يد كبار الأمراء وليس له أمر ولا نهى بينهم ، ونتيجة لهذا الوضع المختل انتشرت بين المماليك شائعة مفادها أن السلطان ينوى القبض على

---

(٨٧) المقريزى : السلوك حـ٢ ق٣ ص ٧٤٧ ، الخطط حـ٢ ص٢٤١ ،
وانظر ايضا : ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٠ ص ١٨٦ ، ١٨٨ ،
D. Ayalon, The Circassians.., p. 138.

(٨٨) المقريزى : السلوك حـ ٢ ق٣ ص ٧٥١ ، ابن تغرى بردى :
النجوم حـ ١٠ ص ١٩٠ .

كبار الأمراء الذين يحجرون على تصرفاته ، وأنه أظهر المرض احكاما لمؤامرته ، فبادر هؤلاء بالقبض على السلطان وعزله قبل أن ينفذ خطته ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م وأقام الأمراء أخاه صلاح الدين صالح فى السلطنة محله (٨٩) .

ولم يكن حظ السلطان صلاح الدين صالح بأفضل من أخيه ، فاستمرت الفتن بين كبار الأمراء وعصيانهم دون أن يستطيع السلطان فعل شىء . وزاد من سوء الموقف مؤامرة الوزير منجك فى القاهرة ، وعصيان نواب حلب وحماه وطرابلس فى الوقت الذى اشتدت الأزمة المالية فى مصر . ولما وجد السلطان صالح نفسه عاجزا عن تدبير الأمور بسبب سيطرة الأمير شيخو على الموقف لجأ الى الأمير طاز الذى نال الحظوة لدى السلطان . ولم يستسلم شيخو للموقف ، فبيت النية مع الأمير صرغتمش على عزل السلطان الصالح أوائل شوال سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م . وقدنجحت المؤامرة وأعيد الناصر حسن مرة أخرى الى السلطنة . فى نفس العام (٩٠) . ويبدو أن الناصر حسن قد مال فى سلطنته الثانية الى التقليل من الاعتماد على المماليك الترك، بل انه عزم على قطع دابرهم كما يقول المقريزى ، وقدم عليهم أولاد الناس ، فجعل عشرة منهم أمراء الوف وكان غالب نواب القلاع

---

(٨٩) ذكر المقريزى أن ايام الناصر حسن خلال سلطنته الأولى كانت شديدة ، فخرجت العربان بالصعيد والعشير بالشام ، هذا فضلا عن الفناء العظيم الذى لم يعهد مثله .

أنظر المقريزى : السلوك حـ ٢ ق٣ ص ٨٣٩ — ٨٤٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٠ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٩٠) عن الأحوال السياسية فى مصر فى تلك الفترة انظر ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٠ ص ٢٨٤ — ٢٨٧ ، المقريزى : كتاب السلوك حـ ٢ ق٣ سنة ٧٥٣هـ ص ٨٦٧ — ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ص ٩١٩ ، حـ ٣ ق ١ ص ١ — ٤ .

الشامية فى زمانه أولاد ناس . ونتيجـة لذلك ، فضـلا عن طموح الأمير يلبغـا الخاصكى وهو من الترك فقد وقع الصدام المحتمل بين السلطان الناصر حسن والأمير يلبغـا الخـاصكى . وكان النصر فى صالح الأمير يلبغا الذى تمكن من القبض على السلطان وسجنه ، وأقام مكانه فى السلطنة المنصور محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون فى جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦١ م ، وأصبح يلبغا هو القـائم بتدبير الدولة ولم يبق للمنصور سوى الاسم فقط (٩١) . ولم يكتف يلبغـا بما وصل اليه من نفوذ بل حجر على السلطان المنصـور ، ثم اتهمه باختلال قواه العقلية وعـدم أهليتـه للقيـام بأمور المملكة . ووافق باقى الأمراء على رأى يلبغا فى خلع السلطان المنصور واقامة الأشرف زين الدين أبو المعالى شعبان بن الأمجد حسين بن النـاصر محمد بن قلاوون فى السلطنة وذلك فى منتصف شعبان سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣ م ، ولم يتجاوز عمره عشر سنين (٩٢) .

وعلى الرغم من النفوذ الكبير والوضع المتميز الذى أصبح فيه يلبغا الخاصكى الا أنه أساء سيرة فى مماليكه الأجلاب الذين أكثر يلبغا من شرائهم . وقـد أجمع هؤلاء أمرهم على الفتـك بأستاذهم يلبغا والخلاص منه ، ولاذوا بالسلطان شعبان كى ينصرهم على يلبغـا . ووجد السلطان شـعبان الفرصـة متاحة أمامه للخلاص والتحرر من سطوة يلبغا وتحكمه فانضم الى ثورة المماليك الأجلاب . وأدرك يلبغا

---

(٩١) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق١ ص ٦٢ — ٦٥ . وقد ذكر ابن تغرى بردى أن النـاصر حسن كان يقول عن أولاد الناس « هؤلاء مأمونو العاقبـة ، وهم فى طى علمى ، وحيث وجهتهم اليه توجهوا ، ومتى أحببت عزلهم أمكننى ذلك بسهولة ، وفيهم ايضا رفق بالرعية ومعرفة بالأحكام » . انظر : ابن تغـرى بردى : النجـوم حـ ١٠ ص ٣٠٩ — ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ .

(٩٢) المقـريزى : السلوك حـ ٣ ق١ ص ٦٢ — ٦٥ ، وانظر ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٦ — ٧ .

أن الأمر قـد خرج من يده ، فلعب ورقة أخيرة وهى اقامة آنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون سلطانا بدلا من السلطان شعبان ، غير أن هذه الحيلة لم تفد يلبغـا شيئا بعد أن خذلته مماليكه وتفرقت عنـه فآل أمره الى الاستسلام ثم القتل . أما مماليكه فقـد جرى معاقبتهم بالحبس والنفى سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٧ م . ثم أخذت الأمور تتطور الى الأسوأ وتنذر بزوال دولة بنى قلاوون لأن المماليك الأجلاب اليلبغاوية لم تهدأ ثورتهم ، وكان معظم هؤلاء الأجلاب من الجراكسة مما اضطر السلطان شـعبان الى القبض على بعضـهم ونفى البعض الآخر الى الكرك . والأمر الهام فى أحداث تلك الفترة هو اشـتراك عـدد من الجراكسة فى الصراع الدائر . وكان من بين هؤلاء الجراكسة برقوق مؤسس دولة المماليك الثانية أو دولة المماليك الجراكسة (٩٣) .

الأمير برقوق والانتصار الحاسم للجراكسة على الترك :

هو برقوق بن أنص ، أصله من بلاد الجركس ، وجنسه «كسا» . أخذ من بلاده وتم بيعـه فى مدينة « قرم » ، وجلبه خواجا عثمان ابن مسافر الى مصر حيث اشتراه الأتابك يلبغـا العمرى الخـاصكى الناصرى فى حدود سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م وأعتقـه وجعله من جمـلة مماليكه الأجلاب (٩٤) . وظل برقوق ضمن مماليك يلبغا الخاصكى حتى

---

(٩٣) المقـريزى : السلوك حـ ٣ ق١ ص ١٣٠ — ١٣٦ ، ١٤١ — ١٤٥ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٤١٦ — ٤٢٤ ، ابن تغرى‌بردى: النجـوم حـ ١١ ص ٣٦ — ٤٠ ، وأنظـر د. حكيم : مرجـع سـابق ص ٣٢ — ٣٥ .

(٩٤) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٢٢٣—٢٢٦ ، المقريزى ، كتاب السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٤٧٦ ، ٩٤٣ ، الصيرفى الجوهرى : نزهـة النفوس والأبدان حـ ١ ص ٤٩٧ ، ابن اياس : مصـدر سابق حـ ١ ق٢ ص ٢٧٧ ، ٣٠١ ، ٣١٢ ، ٣١٩ .

قتل ذلك الأمير على يد مماليكه فى ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ بسبب سوء معاملتــه لهم • وتلى ذلك القبض على معظم مماليك يلبغــا ، فقتــل بعضـــهم ، وحبس أكثرهم • وكان برقوق ضــمن المحبوســين حتى أفرج عنه.(٩٥) •

واشترك برقوق فى ثورة المماليــك اليلبغــاوية مرة أخرى سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٨م بزعامة الأمير استدمر النــاصرى الأتابــك وشريكه الأمير خليل بن قوصون • وطالب الثوار بعزل السلطان شعبان ، كما حــدثت حروب وفتن بين المماليك انتهت بتمزيق المماليك اليلبغــاوية مرة أخرى وقتل عــدد كبير منهم ، فى حين نفى من تبقى منهم الى الشام • وكان برقوق ضمن هؤلاء المنفيين حيث ظل محبوسا فى جب مظلم فى قلعــة الكرك عدة سنين حتى أفرج عنه ، فانضم الى مماليك

= وقد نفى ابن تغــرى بردى ماذكره المقــريزى وابن اياس من أن برقوق كان اسمه فى البداية الطنبغا أو سودون ثم غيره استاذه يلبغا الى برقوق •

وانظر ســيرة برقوق كما كتبهــا الــكاتب اللاتينى دى ميجنانللى B. De Mignanelli المترجم فى بلاط السلطان برقوق • ونشرها فشل W. J. Fischel فى مجلة :

Arabica vol. 6, 1959, pp. 57 — 74, 152 — 172 .

بعنوان : « Ascensus Barcoch » صعود برقوق •

(٩٥) ابن تغــرى بردى : النجــوم جـ ١١ ص ٣٥ — ٤٠ ، ٢٢٣ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ق١ ص ١٣٠ — ١٣٧ ، ابن دقمــاق : الجوهر الثمين ص ٤١٥ — ٤١٩ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق٢ ص ٤٥ — ٥٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٥ ص ٢١٣ — ٢١٥ •

الأمير منجك اليوسفى نائب الشام (٩٦) • وفى أواخــر عام ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م استدعى السلطان شــعبان الأمير منجك اليوسفى من نيــابة الشــام الى القــاهرة وعينــه نائبــا للسلطنة وفوض اليه النظر فى الأحبــاس والأوقاف والوزارة • وقــد عاد برقوق مع ســيده منجك الى مصر ، والتحق بخــدمة أولاد السلطان الأشرف شعبان جنــديا عاديا (٩٧) • وأخذ دور برقوق يتصاعد على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية فى مصر فى ذلك الوقت ، واشــترك فى معظم المؤامرات التى دبرت للاطاحة بكبار الأمراء أو حتى بالسلاطين أنفسهم ، فكان برقوق من جملة المماليك الذين ثاروا بعد سفر السلطان الأشرف شعبان الى الحجاز سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م (٩٨) •

وانتقل برقوق الى خدمة سيد جديد هو الأمير قرطاى الطازى ، وحتى ذلك الوقت لم يكن لبرقوق شأن يذكر بل كان جنديا عاديا الى أن اشترك فى المؤامرة مع الأمير اينبك البدرى الذى كان يشغل وظيفة أمير أخور ضد قرطاى الطازى الأتابك فى ســنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م ،

---

(٩٦) ابن دقماق : مصــدر ســابق ص ٤٢٣ — ٤٢٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ص ٤٠ — ٤٩ ، ٢٢٣ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق١ ص ١٥٢ — ١٥٥ ، جـ ٣ ق٢ ص ٤٧٦ ، ابن اياس : مصــدر سابق جـ ١ ق٢ ص ٥٥ — ٥٨ ، ٦٨ — ٧١ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصــافى جـ ٢ تحقيق د. محمــد أمين ص ٤٤٠ — ٤٤٣ ، ابن حجر : الدرر جـ ١ ص ٤١٣ ، وانظر د. حكيم : مرجع سابق ص ٣٩ •

(٩٧) ابن تغرى بردى : النجــوم جـ ١١ ص ٦٤ — ٦٥ ، ٢٢٣ ، المقــريزى : الســلوك جـ٣ ق١ ص ١٥٥ ، ٢٢٤ — ٢٢٥ ، جـ ٣ ق ٢ ص ٤٧٦ ، الـ جوهرى الصيرفى : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٣ — ٣٤ ، ابن اياس : مصــدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٣١٩ ، ابن دقمــاق : مصــــدر ســابق ص ٤٢٨ •

(98) William Muir, The Mameluke, p. 105.

فنــال برقوق عندئذ ترقيــة الى امرة طبلخاناه دفعــة واحدة [٩٩] .
وعندما ثار نواب المدن الشامية بالاشتراك مع قرطاى الذى كان قــد أبعد الى حلب ، مع طشتمر فى ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ ضد السلطان المنصور على — ابن الأشرف شعبان — والأتابك اينبك بادر السلطان والأتابك باخراج مماليكهما للتوجه الى بلاد الشام لاخماد الثورة . وما أن خرجت المقــدمة وفيها برقوق وفيها السلطان المنصور على واينبك البــدرى حتى شاعت الأخبار بثورة بقية المماليك فى القاهرة ، فعــاد أينبك مسرعا صحبة السلطان ، ولكن الفتنة اتسعت ولاذ أينبك بالفرار ثم استسلم أخيرا بعــد أن أدرك صعوبة الهرب . وقد كان برقوق هو رأس هــذه المؤامرة ومحرك سلسلة أحداثها [١٠٠] .

وأسفرت هذه الفتنــة عن تركيز السلطنــة فى يد الأمير يلبغــا الناصرى الذى سكن الاسطبل السلطانى . ولكن يلبغا كان لين الجانب فاستخف به برقوق وزميله بركه التركى ، وركب الأثنان مع مماليكهما وقبضا على كثير من الأمراء فى حين لم يظهر يلبغــا أى اعتراض على ذلك ، وقد نال برقوق ترقيــة أخرى بعد هــذه الفتنــة وأصبح أمير أخور وأمير مائة مقدم ألف ، وسكن الاســطبل الســلطانى مع الأمير يلبغــا الأتابك ، أما بركه زميل برقوق فقد أصبح أمير مجلس ، كمــا اســتدعى الأمير طشتمر الداودار من نيــابة دمشق واســتقر أتابكا

---

(٩٩) ابن حجر : انباء الغمر حـ١ ص١٥٠ (تحقيق د. حسن حبشى) ابن تغرى بردى : النجــوم حـ ١١ ص ٦٥ ، ١٣٣ — ١٣٤ ، ١٥٣ — ١٥٨ ، ٢٢٣ ، المقريزى : السلوك حـ ٣ ق١ ص ٣٠٥ — ٣٠٨ .

(١٠٠) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق١ ص ٣١١ — ٣١٤ ، ابن تغرى بردى : النجــوم حـ ١١ ص ١٥٦ — ١٥٩ ابن اياس : مصــدر ســابق حـ ١ ق ٢ ص ٢٠٧ — ٢٠٩ .

فى مصر [١٠١] .

وكان برقوق من الذكاء بحيث أخفى نواياه الحقيقية فى الوصول الى الحكم ورفع شأن بنى جنسه الجراكسة ، فأشرك زميله بركه وهو تركى فى معظم محاولاته لازاحة كبار الأمراء حتى خلا المسرح السياسى والعسكرى لهما وعندما حانت الفرصة المناسبة ضرب برقوق ضربته ضد بركه . وهكذا فان برقوق لم يقنع بالترقية الى وظيفة أمير خور ، ولم يعجبه استدعاء طشتمر نائب دمشق لتولى وظيفة الأتابكية فى مصر وهى الوظيفة التى تؤهل صاحبها لمنصب السلطنة . وأخذ برقوق يتحرش بالأتابك طشتمر حتى يكون الخلاف بينهما سببا فى اثارة الفتنة ، ثم طلب برقوق أن يقبض طشتمر على أحد مماليكه وهو كمشبغا رأس نوبة طشتمر ويخرجه منفيا . ومع أن طشتمر استجاب لذلك الطلب درءا للفتنة الا أن برقوق حقق غرضه لأن بقية مماليك طشتمر ثاروا فى وجهه وعنفوه على استسلامه لبرقوق . واستعد الطرفان للحرب التى خطط لها برقوق جيدا مع زميله بركه ، فكان النصر فى صالح برقوق وتم اعتقال طشتمر مع كبار مماليكه وأرسل الجميع الى سجن الاسكندرية ، فى حين أصبح برقوق أتابكا للعسكر بالديار المصرية فى ذى‌الحجة من عام ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م ، كما أصبح بركه رأس نوبة كبير ، وعين أيتمش البجاسى صديق برقوق أمير أخور ، فكان هؤلاء الثلاثة هم أصحاب الحل والعقد والدولة وكبيرهم برقوق حتى قالت العامة « برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة » . أما يلبغا الناصرى فقد تلاشى دوره السياسى والعسكرى

---

(١٠١) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق ١ ص ٣١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ١٥٩ — ١٦٠ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٤٤٥ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق٢ ص ٢١٠ ، ابن حجر : انباء الغمر حـ ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

فى هذه الفترة وسجن فى الاسكندرية ، ثم أفرج عنه فيما بعد وتولى نيابة طرابلس (١٠٢) •

وكان وصول برقوق الجركسى الى منصب الأتابك بمثابة الصدمة للمماليك الترك من عنصر القبجاق ، فشرعوا فى تدبير المؤامرات لازاحته والخلاص منه ، ولكن عيون برقوق التى كانت فى كل موقع نجحت فى كشف هذه المؤامرات ، فاستعد لها برقوق جيدا ونجح فى القضاء عليها • ومن هذه المؤامرات تلك التى دبرها مماليك السلطان ومماليك طشتمر الأتابك السابق ، وكذلك مؤامرة الأمير اينال اليوسفى أمير سلاح • وقد تم القبض على اينال ومماليكه وحرم من اقطاعه وأنعم به على يلبغا الناصرى الذى استدعى من طرابلس (١٠٣) •

ومن الواضح أن برقوق قد أصبح بعد نجاحه فى القضاء على هذه المؤامرات من أقوى الشخصيات فى الدولة ، وتطلعت نفسه الى منصب السلطنة ، لكنه أدرك أن الوقت لم يحن بعد للقيام بهذه الخطوة قبل ازاحة الأمير بركة التركى من طريقه • وكما لاحظنا فقد كان بركة شريكا لبرقوق فى كل مؤامراته من أجل تصفية كبار الأمراء•

---

(١٠٢) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ١٦٢—١٦٤ ، المقريزى: السلوك حـ ٣ ق١ ص ٣٢٢ — ٣٢٥ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص٤٤٥ — ٤٤٦ ، ابن قاضى شهبه : تاريخه المجلد الأول ص ٤٢ ، ابن حجر : انباء الغمر حـ ١ ص ١٥٤ — ١٥٦ ابن خلدون : التعريف ص ٣٥٧ ، ابن اياس : حـ اق٢ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ •

(١٠٣) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ١٦٥ — ١٦٦ ، ١٦٧— ١٦٩ ، المقريزى : السلوك حـ ٣ ق ١ ص ٣٦٥ — ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الأول ص ٩ — ١٠ ، ابن حجر : انبـاء الغمر حـ ١١ ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، ابن دقماق : مصدر سـابق ص ٤٤٨ — ٤٤٩ ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ، ٢٢٦ — ٢٢٨ ، ٢٤٩،

وكان برقوق أكثر دهاء ومكرا من بركة فطلب من القضـــاة والعلمـــاء التوسط بينـــه وبين بركة لازالة مابينهما من خلافات اوجـــدها برقوق نفسه • وهكذا ظهر برقوق بمظهر المسالم وكسب تأييد هذه الطوائف فى الصراع بينـــه وبين بركة • وأخـــيرا نشبت الحرب بينهما سنة ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م ، وكالعادة فقد كان برقوق قد بيت النية لها واستعد جيدا بمماليكه ؛ فانتهت الحرب بانتصار برقوق وهزيمة بركة وحبسه فى سجن الاسكنـــدرية ، وبلغ دهاء برقـــوق حـــدا أن أوعـــز الى نائب الاسكندرية خليل بن عرام بأن يقتـــل بركة فى السجن وبعـــدها سلم برقوق خليل بن عرام الى مماليك بركة فمزقوه اربا • ثم شرع برقوق فى تصفية مماليـــك بركة والقضـــاء عليهم بالحبس والنفى ؛ وبذلك تخلص برقوق من معظم المماليـــك الترك وأصبح أغلب أمـــراء الدولة جراكسة من أتبـــاعه • « فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وانتشت بعدها دولة الجراكسة من يومئذ » (١٠٤) •

وهكذا تعـــاظم نفوذ برقوق وتخلص من كبار منافســـيه ، ولم يبق أمامه حائل لتولى السلطنة سوى بيت قلاوون والمماليـــك المؤيدين له • ولم يكن برقوق فى عجلة من أمره ، وأدرك أنه لن يخسر شـــيئا من وجود طفل فى منصب السلطنة ، لذلك تظاهر برقوق بحرصه على أن يتولى أحد أبنـــاء الأشرف شعبان الحكم بعد وفاة السلطان المنصـــور على • وعندما سرت شائعة بأن الناس يتحدثون عن سلطنـــة الأتابك

---

(١٠٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق١ ص ٣٧٩ — ٣٨٥ ، ٣٩٦ — ٣٩٨ ، ابن تغـــرى بردى : النجـــوم جـ ١١ ص ١٧٤ — ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٤ ابن قاضى شهبه : المجـــلد الاول ص ٢٣ — ٢٦ ، ٣٢ — ٣٤ ، ابن دقماق : مصـــدر سابق ص ٤٥٠ — ٤٥٣ ؛ ابن حجر : أنبـــاء الغمر جـ ١ ص ٢١٠ — ٢١٥ ، ابن اياس : مصـــدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٢٥٥ — ٢٦٢ ، ٢٧٣ ،

Wiliam Muir, op. cit., p. 102, Note 2 ;

De Mi Gnanelli, op. cit., pp. 71 — 73.

برقوق واعتراض الأمراء على ذلك بقولهم « لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك يلبغا » عنـدما حدث ذلك أسرع برقوق وجمع الأمراء والقضاة والخليفة وتكلم معهم فى سلطنة أحد أبنـاء الأشرف شعبان ، فأسرع الجميع بالموافقة على تعيين الصالح حاجى بن الأشرف شعبان سلطانا على مصر والشـام فى ٢٤ صفر سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م وهو ابن تسع سنوات ، فى حين ظل برقوق أتابكا ومدبرا لشئون الدولة (١٠٥) .

ومع أن برقوق صـار هو المسيطر على كل المقدرات السياسـية والعسـكرية فى مصر فى تلك الفترة الا أن ذلك لايعنى عـدم وجود معارضـة له ، فالفتن والمؤامرات كانت السمة الظاهرة فى تاريخ دولة المماليك بأسرها لاسيما عندما يكون هنـاك سلطان طفل فيطمع غندئذ كل أمير فى القفز الى منصب السلطنة . وقد أصبحت هذه الظـاهرة واضحة أكثر فى أواخر دولة بنى قلاوون عندما حدث خلل فى نظـام الجنـدية المملوكى الذى درج عليه المماليك منذ نشأة دولتهم . فقـد كان ذلك الخلل راجعـا فى بعض أسبابه الى الصراع العنصرى بين القبجاق الترك والجراكسة . لقد كانت القاعدة هى أن يتدرج الفارس المملوكى من جندى حلقـه عادى الى أعلى الرتب وفقا لترتيب معين. ولكن تلك القاعدة جرى التجاوز عنها واهمالها كلية فى أواخر دولة بنى قلاوون حتى أصبح من الممكن أن يترقى الجندى العادى الى المناصب العالية دفعـة واحدة دون أن يمر بالتدرج الطبيعى . وقـد استفاد برقوق نفسه من تلك الأوضاع عندما ترقى من جندى عادى الى امرة طبلخاناة دفعـة واحدة ثم منهـا الى أمير أخور ثم أمير مائة مقـدم الف حتى شغل وظيفة أتابك العسكر . وقد شجعت هذه الأمور صغار

---

(١٠٥) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٤٣٩ — ٤٤٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٢٠٦ — ٢٠٨ ، ٢١٠ — ٢١١ ، د. طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٤ .

المماليك على المترد والثورة واغتيــال كبار الأمراء طمعــا فى الفوز بمناصب أعلى . وقــد وصف ابن تغرى بردى تلك الحالة وصفا دقيقا بقوله « فانه من يوم قتل الأشرف شعبان وصار طشتمر اللفاف من الجندية أتابك العساكر ثم من بعده قرطاى الطازى ، ثم من بعــده أينبك البدرى ، ثم من بعده قطلقتمر ، ثم الأتابك برقوق وبركة . وكل هؤلاء كان اما جنــديا أو أمير عشرة وترقوا الى هذه المنزلة بالوثوب واقامة الفتنــة طمع كل أحد أن يكون مثلهم ويفعل مافعلوه ، فذهب لهذا المعنى خلائق ولم يصلوا الى مقصودهم » (١٠٦) .

ومن الثورات التى نشبت ضــد برقوق ثورة مملوكه ايتمش مع بعض صــغار المماليك سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م ، وقد أخمدها برقوق ، وبعدها شعر بضرورة تولى منصب السلطنة ، وبوجه خاص بعــد أن صفا الجو له بموت اثنين من كبار الأمراء الذين كان يخشاهم برقوق وهما الأمير اقتمر عبد الغنى نائب السلطنة ، والأمير أيدمر بن عبدالله الشمسى ، فقد كانا من قــدامى الأمراء . ثم ان برقــوق قوى من عصبيته بأن جلب الى مصر عــددا كبيرا من الجراكســة وأنعم عليهم بالوظــائف الاقطاعية الــكبيرة حتى « صــار غالب العسكر مماليــك جراكسة ، وانحط قــدر الأتراك ... فعند ذلك أخذ الأتابكى برقوق فى أسباب أمر سلطنته » .. وكان أن عقد برقوق فى شهر رمضــان سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م مجلسا حضره الأمراء والقضاه والخليفة العباسى للتشاور فى اختيــار سلطان قوى يحمى البــلاد ويدفع الفساد لأن السلطان الملك الصالح حاجى صغير السن كما قلت حرمته فى البلاد وبين الناس وأن الوقت « محتاج الى ملك عاقل يستبد بأحوال الدولة

---

(١٠٦) المقــريزى : السلوك جـ ٣ ق١ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ، جـ ٣ ق٢ ص ٤٧٣ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق٢ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ص ٢١٢ — ٢١٤ ، وانظر أيضا : د. طرخان : مرجع ســابق ص ٥ .

ويقوم بأمور النــاس ، وينهض بأعبــاء الحروب والتدبير » • وقــد رشح الحاضرون الأتابك برقوق لتولى منصب السلطنــة ، كما خلعوا السلطان حاجى • وهكذا نال برقوق هدفه الذى خطط له منذ أن وطئت قــدمه أرض مصر ، وانقضت بذلك دولة الأتراك من مصر وزالت دولة بنى قلاوون ، وبدأت دولة الجراكسة (١٠٧) •

ومع أن السلطان برقوق شرع فور وصــوله الى العــرش فى القيام بحركة ترقيات لمماليكه واعتقالات للمماليك الأشرفية وغيرهم من الترك بهدف تثبيت نفوذه وسيطرة الجراكسة سيطرة تامة على الدولة الا أن ذلك لايعنى عــدم وجود معارضة قوية ضده من عناصر مختلفة أغلبها من الترك (١٠٨) • ذلك أن السرعة الكبيرة التى وصل بها برقوق الى منصب السلطنــة قــد جعلت معظم الأمراء لايشــعرون بالولاء الحقيقى له ، ومعظم من أطــاعه كان بدافع الخوف أكثر منه بدافع الاخلاص لاسيما أن غالبية الأمراء الترك قد شعرت بالقلق من تسلط الجراكســة على الدولة • وقــد عبــر عن ذلك القلق الأمير الطنبغــا السلطانى نائب ابلستين ، فقــد أعلن عصيانه على برقوق ، وفر هاربا الى بلاد المغول ، وقال : « لا أكون فى دولة حاكمهــا جركسى » ، كما فر الأمير أقبغا بن عبد الله نائب غزة والتجــأ الى الأمير العربى

---

(١٠٧) المقــريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٤٦٢ ، ٤٧٤ — ٤٧٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٢١٤ — ٢١٩ ، ابن حجر : انبــاء الغمر حـ ١ ص ٢٥٧ ، الصــيرفى الجوهرى : مصدر سابق حـ ١ ص ٣٦ — ٣٨ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق٢ ص ٣٠٩ — ٣١٠ ،

William Muir, op. cit., p. 103.

وانظر ايضــا :

D. Ayalon, The Circassians.., p. 138 — 139.

(١٠٨) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٤٧٩ ، الصــيرفى : مصدر ســابق حـ ١ ص ٥٠ •

نعير ، بل ان الخليفــة العبــاسى المتوكل برغم أحوال الخلافة المتردية آنذاك قــد طمع هو الآخر فى الاستيلاء على السلطنة ، هذا فضـــلا عن مؤامرات بعض صغار المماليك الأجلاب فى القاهرة (١٠٩) .

ونتيجــة لذلك فقد شــعر برقوق بعــدم الاطمئنان وأن عرش السلطنة غير ثابت وأن نضــال الجراكســة للوصول الى الحكم قــد يذهب سدى ، فقام باجراءات سريعــة ضد كل من شك فى ولائه أو تخوف منه لاسيما كبار الأمراء ، وطلب منهم برقوق ألا يمكنوا أحدا من مماليكهم بدخول قصره فى القلعــة ، واذا دخل الأمراء لم يدخل مع كل أمير سوى مملوك واحــد ، وأن يكون باقى مماليكهم واقفين ينتظرونهم خارج باب القصر (١١٠) . واستدعى السلطان برقوق الأمير يلبغــا الناصرى من نيــابة حلب الى القاهرة سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥ م وما أن وصل يلبغا الى بلبيس حتى قبض عليه وأرسل الى الاسكندرية سجينا وصودرت أمواله بعد أن توافرت معلومات لدى السلطان برقوق عن تآمر يلبغــا مع سولى بن دلغادر أمير التركمان ، فضــلا عن أن يلبغا كان من حزب بركة عندما نشب النزاع بين هذا الأخير وبرقوق. ثم قبض برقوق بعــد فترة وجيزة على عشرة من مماليكه الاضــافة الى الأمير تمربغا الحاجب وأعدمهم بتهمة التآمر ، كمــا أمر برقوق

---

(١٠٩) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، المقريزى: السلوك حـ٣ ق٢ ص ٤٩٣—٤٩٥ ، الجوهرى الصيرفى : مصــدر سابق حـ ١ ص ٩٢ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الاول ص ١٠٩ — ١١٠ ، ابن حجر : أنبــاء الغمــر حـ ١ ص ٢٧٥ ، ابن اياس : مصــدر سابق حـ ١ ق٢ ص ٣٢٤ — ٣٢٥ ، ٣٣٢ — ٣٣٣ ، ٣٤٤ ،

William Mujr, op. cit., p. 106.

وانظر ايضا : د. طرخان : مرجع سابق ص ٥٩ .

(١١٠) الجوهرى الصــيرفى : مصــدر سابق حـ ١ ص ١١٤ ، ابن حجر : أنبــاء الغمر حـ ١ ص ٣٠١ .

بنفى عـدد كبير من مماليـك الأمير أيتمش البجـاسى والمماليـك الأشرفيـة (١١١) .

ويبدو أن هذه الاجراءات التى اتخذها برقوق قـد زادت كبار الأمراء تخوفا من القبض عليهم ، وأسرع الأمير بيدمر نائب دمشـق باعلان عصيانه وقطع الأموال عن مصر ، ثم سرت شـائعة بأن الأمير بيـدمر يسعى الى سلطنـة ابنه محمد شاه ، فلما سمع برقوق ذلك حبسهما فى قلعـة دمشق مع كل أنصارهما ، وعين مكانه فى نيـابة الشام الأمير الطنبغـا الجوبانى (١١٢) ، ثم أفرج برقوق عن يلبغـا الناصرى وأعاده الى نيـابة حلب ، وزاد من موقف برقوق السىء فى ذلك الوقت عصيان الأمير تمربغا الأفضلى الأشرفى نائب ملطيـة وهو المشهور باسم منطاش ، وانضمام عـدد كبير من المماليـك الأشرفية والعنـاصر التركمانية الأخرى فضلا عن القاضى برهان الدين صاحب سيواس ، ونائب البيرة الى ذلك العصيان (١١٣) . وزادت الفتنة ضد برقوق وكثرت الوشايات لديه فى كبار الأمراء ، وسرت شائعات بتمرد عدد كبير منهم ، فاستدعى السلطان برقوق الأمير الطنبغـا الجوبانى نائب الشام وقبض عليه فى القـاهرة أواخر سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م ، كمـا ألقى القبض أيضـا على الأمير كمشبغا نائب طرابلس . بل ان

---

(١١١) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص٥٣٤ ، ٥٤١ ، الجوهرى : مصدر سابق حـ ١ ص ١١٩ — ١٢٠ ، ص ١٢٨ ، ابن قاضى شـهبة ، تاريخه المجلدالأول ص٤١٧ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ١ ق٢ ص٢٦١ .

(١١٢) ابن صصرى : تاريخـه ص ١ — ٢ ، الجوهرى : مصـدر سابق حـ ١ ص ١٢٨ .

(١١٣) المقـريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٥٤٣ ، ٥٦٧ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٢٥١ ، الجوهرى : مصـدر سابق حـ ١ ص ١٥٨ ، ابن دقماق : مصـدر سابق ص ٤٦٢ — ٤٦٣ ، ابن حجر : انبـاء الغمر حـ ١ ص ٣٣٢ ، ابن اياس : مصـدر سـابق حـ ١ ق ٢ ص ٣٩٠ .

برقوق من فرط تخوفه أصدر أمرا بالقبض على امراء البطالين جميعا فى بلاد الشام حتى لايشكلوا قوة يستخدمها المتمردون من أعدائه ، وقد أدت هذه الأمور كلها الى ازدياد موجة الكراهية والعصيان ضد برقوق (١١٤) .

وفشلت جهود برقوق فى السيطرة على الموقف ، وأصبح موقفه أكثر صعوبة عندما أعلن يلبغا الناصرى نائب حلب العصيان وتحالف مع منطاش نائب ملطية ، وانضم اليهما بعض أمراء طرابلس بزعامة بزلار وقتلوا نائب المدينة . ثم استطاع منطاش أن يستولى على حمص ، كما تواترت الأخبار بدخول سائر أمراء الشام والمماليك اليلبغاوية والأشرفية وسولى بن دلغادر أمير التركمان ونعبر أمير العربان فى طاعة يلبغا الناصرى وعزم الجميع على محاربة السلطان برقوق (١١٥) . وقرر برقوق قبول التحدى ومواجهة العصيان وأعد حملة كبيرة أرسلها على الفور الى دمشق فى ربيع الآخر سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م وضربت معسكرها على قبة يلبغا بظاهر المدينة . وقبل أن يخرج برقوق من القاهرة عمل على استرضاء الجماهير بالغاء كثير من المكوس والضرائب كما أفرج عن الخليفة العباسى المتوكل الذى كان محبوسا . وأخيرا وقع الصدام بين الثائرين وقوات برقوق وانتهى

---

(١١٤) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٥٨٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ — ٢٥٦ ، الجوهرى : مصدر سابق حـ ١ ص ١٧٦ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الأول ص ٢٤٦ ، ابن اياس : حـ ١ ق٢ص ٣٩٢ .

(١١٥) ابن صصرى : تاريخه ص ٣ — ٦ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٤٦٤ — ٤٦٥ ، المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٥٩٠ — ٥٩٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٢٥٤ — ٢٥٦ الجوهرى : مصدر سابق حـ ١ ص ١٨٤ — ١٨٥ ، ١٨٩ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ٢ ص ٣٩٣ .

بهزيمة ساحقة لقوات السلطان فى موقعــة خان لاجين فى أواخـر شهر ربيع الآخر سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م وقتل عدد كبير من قوات برقوق كما فر عدد آخر الى قوات الثائرين فى حين تمكن يلبغا الناصرى من دخول دمشق حيث تم القبض على نائبها طرنطاى المؤيد لبرقوق (١١٦).

وكان للهزيمــة التى وقعت فى قوات السلطان برقوق رد فعــل سىء بالنسبة له ولرجاله ، فبالاضافة الى قتل كثير من أمرائه الـكبار مثل الأمير جركس الخليلى ، فان الموقف فى القــاهرة قــد اضطرب اضطرابا شديدا وأنذر بزوال دودلة الظاهر برقوق ، فأغلقت الأسواق ونهبت الأخباز وشغب الذعر ، وزاد من سوء الحالة انتشار الوباء فى البــلاد (١١٧) . أما السلطان برقوق فقــد استشاط غضــبا واتخـذ اجراءات انتقامية عاجلة ضــد الأمراء العصــاة ، فصــادر أموالهم وأرزاقهم فى مصر ، وأرسل الى نائب غزة ابن باكيش لتجهيز الاقامات للحملة الثانيــة التى يعدها السلطان للزحف على بلاد الشام ، ولــكن ابن باكيش كان هو الآخر مؤيدا للثوار دون علم برقــوق ، فأسرع باخبــار المتآمرين بنيــة السلطان ، وكان الناصرى أسرع فى حركته من برقوق ، ووصل بقواته الى مشارف القاهرة قبل أن يخرج السلطان منها . وفشلت خطة برقوق فى استمالة العامة بالمال ، واعادة الخليفة الى منصبه مرة أخرى لابطال حجة يلبغــا فى الثورة ، ولم تؤد كــل هذه الاجراءات وغيرها الى تماسك جبهــة برقوق العسكرية ، فبعــد مناوشات قصيرة بين الجانبين شعر الظاهر بعدم جدوى المقاومة بعد

---

(١١٦) ابن صصرى : تاريخــه ص ٧ — ٩ ، ٩ — ١٢ ، المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ — ٥٩٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٢٦٣ ، ابن قاضى شهبه : المجــلد الأول ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ — ٢٧١ ، الجوهرى : مصدر سابق حـ ١ ص ١٩٢ — ٩٣ ابن دقمــاق : مصدر سابق ص ٤٦٦ — ٤٧٠ ،

(١١٧) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق ٢ ص ٦٠٠ ،

أن تخلى عنه معظم مماليكه فاضطر الى الهرب والاختفـــاء فى احدى الدور • أما يلبغا فقد أعاد الى عرش السلطنة مرة أخرى الملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان ، وغير لقبه الى المنصور • ولما كان يلبغـــا قد أعلن عن مكافأة لمن يقبض على برقوق فقد وشى به مملوك الخياط الذى اختفى عنده ، فتم القبض عليه ونفى الى الكرك ليحبس به • وهكـــذا انتهت سلطنـــة برقوق الأولى بكارثة سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م وشهدت عملية سيادة الجراكسة تراجعا مريرا بعـــد أن تم انتصـــار الترك عليهم (١١٨) •

واختلف أعداء برقوق الذين أصبحت لهم السيادة فى مصر وهم يلبغا النـــاصرى ومنطاش والجوبانى ، أما السلطان المنصور فلم يكن له رأى مع هؤلاء ، اختلفوا فى كيفية التخلص من برقوق ، ولكن يلبغا رأى الابقـــاء عليه حيـــا بحجة خوفه من مماليك برقوق اذا تم قتله، ولكن الحقيقة أن يلبغا أراد الاحتفاظ ببرقوق حيـــا كى يكون ورقـــة رابحة يهدد بهـــا منطاش والجوبانى فى الصراع المتوقع بين الثلاثة• وعلى الرغم من أن يلبغا الناصرى قد أصدر منشورا بالأمان للماليـــك الجراكسة ، وأن جميع المماليك والأجناد على حالهم ولا يخرجون عن اقطاعاتهم ، على الرغم من ذلك فقـــد جرت حركة اعتقـــالات واسعة

---

(١١٨) ابن صصرى : تاريخه ص ١٨ — ١٩ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ق٢ ص ٦٠٣ — ٦٠٩ ، ٦١٠ — ٦١٥ ، ٦٢٧ — ٦٢٩ — ٦٣٢ ، ابن تغرى بردى : النجـــوم جـ ١١ ص ٢٦٩ — ٢٧٢ ، ٣١٩ — ٣٢٢ ، ٣٢٥ — ٣٢٦ ، الجوهرى : مصـــدر سابق جـ ١ ص ١٩٥ — ٢١٠ ، ٢٢٠ — ٢٢٣ ، ابن قاضى شهبه : تاريخه المجلد الأول ص ٢٧٣ ، ٢٧٥ — ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ابن دقماق : مصدر ســـابق ص ٤٦٧ — ٤٦٩ ، ابن حجر : أنبـــاء الغمر جـ ١ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق٢ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٠ •

وانظر أيضـــا :

De. Mignanelli, op. cit., pp. 152 — 154.

لكبار الأمراء منهم تسعة من مقدمى الألوف وعدد آخر من أمراء الطبلخاناه ، كما نفى بعضهم الى الشام ، وهدد بشنق كل من يبقى فى القاهرة الا من يكون قد عين لخدمة السلطان أو غيره من الأمراء (١١٩) .

ولم يستمر الوفاق طويلا بين الحلفاء الثلاثة ، فبالاضافة الى أن بنية النظام المملوكى منذ انشائه قائمة على أساس التنافس والصراع بين القائمين فى السلطة ، فان سلوك الناصرى وسوء سيرته فى الحكم عجلت بالصراع مع الجوبانى ومنطاش . فالأمير يلبغا استأثر بالسلطة وحجر على السلطان الصغير ، وحاز على أحسن الاقطاعات ، وأبعد منطاش فى مهام لقتال العربان بالشرقية ، مما جعل منطاش يحقد على يلبغا ويقسم ألا يرجع عنه « حتى أقتله أو يقتلنى » . وكان منطاش أكثر ذكاء ودهاء من يلبغا ، فاستطاع استمالة المماليك الجراكسة الذين بقوا على قيد الحياة فى مصر ، بل وعدهم بالافراج عن أستاذهم الظاهر بعد الانتصار على الناصرى ، واستطاع منطاش أيضا أن يجذب الى صفوفه العامة من سكان القاهرة الذين لعبوا دورا هاما فى الحرب بينه وبين يلبغا واشتركوا فى المعارك الفعلية ، وهو يمنيهم ويترقق لهم بالكلام قائلا : « أنا واحد منكم وأنتم اخوتنا وأصحابنا ، فتعصبوا له » ، هذا فضلاً عما أنفق عليهم من مبالغ طائلة من الذهب . وعندما لاح انكسار الناصرى فى المعارك الدائرة أخذ كبار مماليكه فى التسلل واحدا بعد الآخر والانضمام الى منطاش حتى انتهى الأمر بهزيمة الناصرى والقبض عليه عند

---

(١١٩) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٦١٥ ، ٦٢٤ ، ٦٣٢ — ٦٣٤ ، ابن صصرى : تاريخه ص ٢٠ ، الجوهرى : مصدر سابق حـ ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ ، ٣٢٧ ، ابن قاضى شهبه : مصدر سابق المجلد الأول ص ٢٧٩ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ٢ ص ٤٠٤ .

سرياقوس ، واستقر الأمر لمنطاش أتابكا للجيش عوضا عن يلبغا الذى أودع سجن الاسكندرية [١٢٠] .

وسيطر منطاش على الموقف ، وأنعم على عدد كبير من الأمراء بالترقية من الجندية العادية الى امرة مائة وتقدمة الف دفعة واحدة . وهو اجراء يدل على ماوصل اليه نظام الجندية المملوكى من انحلال وتدهور فى ذلك الوقت ، وهو نفس الاجراء الذى طبقه برقوق مع مماليكه الأجلاب من الجراكسة ، والنتيجة الحتمية لذلك التصرف هو عدم ولاء الأجلاب لأستاذهم لأنهم لم يمروا فى مراحل التدريب المتدرجة من الأدنى الى الأعلى ، فكان طبيعيا أن يتخلى الجراكسة الأجلاب عن أستاذهم برقوق عند أول صدام ، وهو ماحدث فيما بعد مع يلبغا ومنطاش [١٢١] .

ولم يحفظ منطاش للماليك الجراكسة من مماليك الظاهر برقوق انضمامهم اليه فى الحرب ضد يلبغا الناصرى ، بل وجدهم خطرا عليه ، فقرر التخلص منهم بأن دبر لهم مكيدة عندما أعلن عن طلب سائر المماليك الظاهرية للصعود الى القلعة للنظر فى أمرهم والانفاق عليهم وترضيتهم ، فلما طلعوا الى القلعة أمر منطاش فأغلق عليهم باب القلعة وقبض على نحو المائتين منهم ورصدت جائزة لكل من

---

(١٢٠) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٦٢٤ ، ٦٤١ — ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ — ٦٤٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٣٢٠ ، ٣٢٣، ٣٣٣ — ٣٣٧ ، ٣٣٩ — ٣٤١ ، ابن صصرى : ص ٢٠ ، الجوهرى : مصدر سابق حـ ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الأول ص ٢٨٢ — ٢٨٣ ، ابن خلدون : التعريف ص ٢٦١ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ٢. ص ٤١١ — ٤١٢ ، ٤١٣ ،
D. Ayalon, The Circassians. p. 141.

(١٢١) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٣٤١ — ٣٤٣ ،
· D. Ayalon, The Circassians.., p. 140.

يأت بمملوك من مماليك الظاهر برقوق ، وهدد من أخفى أحدا منهم . وقد نجح والى القاهرة فى القبض على بعضهم ، كما تم قتل من كان منهم محبوسا فى قلعة دمشق (١٢٢) . وبذلك اتبع منطاش سياسة معادية للجراكسة بلغت ذروتها فى محاولة استئصال شأفتهم من البلاد .

وأثارت هذه الأحداث مخاوف كبار الأمراء الذين أيدوا من قبل منطاش والناصرى ، فأعلن الأمير بزلار نائب دمشق عصيانه ، فأسرع منطاش بعزله والقبض عليه ، كذلك خرج على منطاش نعير أمير العربان فى الشام وتحالف مع سولى بن دلغادر أمير التركمان ونهبت قواتهما بلاد حلب . وعندئذ أدرك منطاش خطورة الابقاء على الظاهر برقوق حيا ، فأسرع برسال مندوب من قبله يعرف بالشهاب البريدى ليحث نائب الكرك حسام الدين الكجكنى على قتل برقوق . ولحسن حظ برقوق فقد انكشف أمر ذلك المندوب لخفة فيه وشاع الخبر بين أهل الكرك ، ونهض قاضى المدينة يخوفهم من مغبة ذلك العمل ، وانتهى الأمر بعصيان نائب الكرك على منطاش واطلاق سراح برقوق (١٢٣) .

وأخذ برقوق يعمل على لم شمل مماليكه الهاربين فى كل مكان

---

(١٢٢) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٣٤٢ ، المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٦٤٩ — ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٧٢ — ٦٧٣ ، الجوهرى : مصدر سابق حـ ١ ص ٢٤٣ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الأول ص٢٨٥ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق ٢ ص ٤١٣ ،
D. Ayalon, The Circassians. p. 140 — 141.

(١٢٣) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٦٥١ — ٦٥٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٣٤٧ — ٣٥٠ ، ابن صصرى : تاريخه ص٢٥ ، الجوهرى : مصدر سابق حـ ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٩ — ٢٥١ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الأول ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ، ابن دقماق : مصدر سابق ٤٧٣ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق٢ ص ٤١٣ — ٤١٤ .

وسار فى اتجاه دمشق فى الوقت الذى اضطربت الأمور فى مصر على منطاش فشرع فى الاستعداد لمواجهة برقوق ومنع أن يسافر أحد الى الحجاز من الخاص والعام الا بورقة فيهـا اذن منه وذلك خوفا من انضمام المماليك وهربهم الى برقوق • ولكن هذه الاجراءات كلهـا لم تفـد منطاش وخرج عليـه المماليك فى مصر فى الوجه القبلى وبوجه خاص فى قوص وانضم اليهم العربان ، كما فشلت الحملة التى أعدها منطاش للسفر الى بلاد الشـام [١٢٤] • وفى ذلك الوقت كان برقوق قد نجح فى هزيمة قوات الشام الموالية لمنطاش وحاول اقتحام دمشق غير أن محاولته فشلت بسبب موقف العـامة • وأسرع منطاش وجهز قواته على عجل وسـافر بها الى بلاد الشـام حيث التقى فى معركة حامية مع برقوق • وحالف الحظ برقوق هـذه المرة ، ذلك أن قـواته هزمت فى ١٧ محرم سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠ م عند شقحب ، فلاذ برقوق بالفرار مع خمسمائة من مماليكه فوجد نفسـه فى معسـكر السلطان المنصور والخليفة والقضاة فقبض برقوق عليهم جميعا وأشهد الجميع على خلع السلطان المنصور وعودة الظاهر برقوق الى منصب السلطنة مرة ثانية ثم سـار الجميع فى اتجاه القاهرة • أما منطاش فقد أسقط فى يده وكان فى دمشق ، وحاول القتـال من جـديد الا أنه فشـل ففر هاربا [١٢٥] •

---

(١٢٤) ابن صصرى : تاريخه ص ٢٥ ، المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٦٥٩ — ٦٦٠ ، الجوهرى : مصدر سابق حـ ١ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ابن قاضى شهبه : المجـلد الأول ص ٢٨٩ — ٢٩١ ، ابن اياس : مصدر سابق حـ ١ ق٢ ص ٤١٥ — ٤١٦ •

(١٢٥) ابن صصرى : تاريخه ص ٢٦ — ٢٧ ، ٢٨ — ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ — ٣٧ ، ٤٩ — ٥١ ، المقريزى : السلوك حـ٣ ق٢ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ —— ٦٦٧ ، ٦٦٨ —— ٦٧١ ، ٦٧٣ —— ٦٨٠ ، ٦٩٢ —— ٦٩٥ ، ابن تغـرى بردى : النجوم حـ ١١ ص ٣٥٢ — ٣٥٤ ، ٣٥٥ — ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ — ٣٦٩ ، ٣٧١ ، الجوهرى : مصدر سابق

وكان بعض مماليك الظاهر برقوق فى القاهرة بزعامة الأمير بطا قد نجحوا فى احتلال قلعة الجبل والحقوا الهزيمة بالحامية التى تركها منطاش ، ودعوا للسلطان الظاهر برقوق ، وأرسلوا اليه الأخبار وهو فى طريقه الى مصر • وقد استقبل الظاهر برقوق عند دخوله القاهرة استقبالا رائعا من قبل جماهير العامة والأعيان والعلماء والفقهاء الذين ساءهم حكم يلبغا ومنطاش • وفى القاهرة تجددت البيعة للظاهر برقوق مرة ثانية من قبل الخليفة والقضاة ، وهكذا بدأت سلطنة برقوق الثانية فى مستهل شهر جمادى الآخرة من عام ٧٩٢هـ / ١٣٩٠ م وبدأت معها خطوات السيطرة التامة للجراكسة على الحكم فى مصر وتلاشى نفوذ الأتراك (١٢٦) •

ونجح برقوق بمهارة فى التخلص من كل خصومه السابقين مثل يلبغا ومنطاش بعد أن استعمل كل دهائه حتى أنه ألمرج فى البداية عن يلبغا وجعله قائدا للقوات المحاربة لمنطاش • كذلك تخلص برقوق من بقايا مماليك بركة الجوبانى ، وأكد بذلك برقوق سيطرة وسيادة العنصر الجركسى على ماسواه من العناصر ، غير أن الاعتماد على ذلك العنصر وحده بعد أن أكثر برقوق من شراء أعداد كبيرة منه لم يمنع المؤامرات التى حيكت ضد برقوق من هؤلاء الجراكسة أنفسهم حتى

جـ ١ ص ٢٥٥ — ٢٥٩ ، ٢٦١ — ٢٦٧ ، ٢٨٣ — ٢٨٦ ، ابن قاضى شهبه المجلد الأول ص ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ — ٣٢٠ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٤٧٥ — ٤٧٦ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٣ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق٢ ص٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٧—٤٢٩ •

(١٢٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق٢ ص ٦٩٦ — ٦٩٩ ، ٧٠٣ ، ٧٠٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ، جـ ١٢ ص٣ — ٤ ، الجوهرى : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٨٨ — ٢٩١ ، ٢٩٤ — ٢٩٥ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٤٧٧ — ٤٧٨ ، ابن قاضى شبهه : المجلد الأول : ص ٣٢٤ — ٣٢٦ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٤ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق٢ ص ٤٢٥ — ٤٢٦ •

أن برقـــوق نـــدم فى أواخر أيامه بعد المؤامـــرة التى دبرها مملوكه الخازندار على باى للفتك به • ومع أن المؤامـــرة تم كشـــفها وقبض السلطان على الخازندار على باى وعذبه عذابا شـــديدا حتى يعترف بشركائه ، الا أن نوايا برقوق قـــد تغيرت ضـــد مماليكه الجراكســـة وندم على أنه لم يسمع نصيحة زوجته خوند الكبرى بعـــدم الاعتماد على عنصر المماليك الجراكسة فقط دون بقية العناصر [١٢٧] •

ويبدو أن برقوق لم يستطع تنفيذ نصيحة زوجته ، فقـــد وافاه الأجل دون أن يتمكن من التعديل العرقى لمماليكه ، وظهر ذلك واضحا فى ثورات الجراكسة العديدة التى قامت خلال عهد ابنه فرج ، وقد حاول المؤيد شيخ فيما بعد أن يحابى عنصر الترك وأن يختار الجنود من المماليك على أساس الكفاية والمقدرة الحربية وليس على أســـاس العنصر أو الجنس ، ولكن محاولة شيخ لم يقـــدر لها البقـــاء طويلا وعادت سيطرة الجراكسة بعد شيخ من جديد • والظاهرة الجـــديرة

---

(١٢٧) عن القتـــال بين برقوق وكل من يلبغـــا ومنطـــاش انظر : ابن‌تغرى بردى : النجوم حـ١٢ ص ٩ ، ١٧ ، ٢٢ — ٢٦ ، ٤١ — ٤٢ ، ابن صصرى : تاريخـــه ص ٦٢ — ٦٩ ، ٧٨ — ٨٤ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٣٩ ، المقريزى : السلوك حـ٣ ق٢ ص ٧١٢ ، ٧٤١ ، ٧٤٨ — ٧٥٣ ، ٧٨٥ — ٧٨٧ ، الجوهرى : مصـــدر ســـابق حـ ١ ص ٣٠٢ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢ — ٣٣٧ — ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٤٧٩ ، ٤٨٢ •

وعن موقف برقوق من الجراكســـة ذكر ابن تغرى بردى أن خوند الكبرى زوجـــة برقوق وكانت تركية الجنس قالت له « اجعل عسكرك أبلق من أربعـــة أجناس : تتر وجاركس وروم وتركمان ، تســـتريح انت وذريتك » فلما حـــدثت المؤامرة التى دبرها على باى قال لها : « الذى أشرت به على هو الصواب » • انظر : النجوم حـ ١٢ ص ٨٢ — ٨٨ ، المقريزى : السلوك حـ ٣ ق٢ ص ٩٠٣ — ٩٠٧ ، الجوهـــرى : نزهـــه حـ ١ ص ٤٦٦ — ٤٦٩ ،

D. Ayalon, The Circassians. p. 141.

بالملاحظة عند المقارنة بين دولة المماليك الأولى والتى تكونت أساسا من الترك القبجاق ، ودولة المماليك الثانية التى كانت غالبيتهـا من الجراكسة ، هذه الظاهرة هى أن دولة المماليك الأولى لم تصر أو تلح على أن ينفرد الترك القبجاق وحدهم بالبقاء فى الجيش المملوكى ؛ والتنوع الكبير لعناصر الجيش المملوكى فى الدولة الأولى يؤيد ذلك الرأى ، هذا فى حين تبدو دولة المماليك الثانية أكثر اصرارا على بقاء الأكثرية المطلقة من الجراكسة ، فالتعصب العنصرى يبدو واضحا فى الدولة الثانية عن الأولى [١٢٨] • وترجع أسباب ذلك الى خوف الجراكسة من أن يفقدوا سيطرتهم وسلطتهم بعد الصراع الطويل الذى خاضوه ضد الترك ، كما أن تجاربهم السابقة فى ذلك الصراع جعلتهم لايثقون فى العناصر الأخرى ، وجعلوا كل اعتمادهم على أبناء جنسهم من الجراكسة فقط •

---

(١٢٨) انظر :
D. Ayalon, The Circassians. p. 140 — 142.

المصادر والمراجع

أولا ــ المصادر العربية :

ابن الأثير : على بن أحمد ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م

(١) الكامل فى التاريخ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

ابن أبى الفضائل : مفضل بن أبى الفضائل ت بعد سنة ٧٢٥ هـ .

(٢) تاريخ ابن أبى الفضائل (كتاب المنهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) نشره بلوشيه فى :
Patrologia orientalis, Tome XII, XIV, XX 1911 — 1928.

ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس المصرى ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٢م .

(٣) بدائع الزهور فى وقائع الدهور .
الجزء الأول تحقيق محمد مصطفى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٢ ــ ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ ــ ١٩٨٣ م .

ابن أيبك الدوادارى : أبو بكر عبد الله بن أيبك الدوادارى بعد سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م .

(٤) كنز الدرر وجامع الغرر ــ الجزء الثامن الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية تحقيق أولرخ هارمان ــ القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، الجزء التاسع الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ــ تحقيق روبرت هويمر ــ المعهد الألمانى بالقاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م

(٥) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

(٦) ———— : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى .
الجزء الثانى تحقيق د. محمد محمد أمين — الهيئة العامة للكتاب الجزء الثالث تحقيق د. نبيل محمد عبد العزيز — الهيئة العامة للكتاب .

(٧) ———— : الدليل الشافى على المنهل الصافى .
الجزء الأول والجزء الثانى تحقيق فهيم محمد شلتوت — جامعة أم القرى ١٩٨٣م .

ابن حبيب : الحسن بن عمر ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م .

(٨) تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه .
ثلاثة أجزاء . تحقيق د. محمد محمد أمين .
الهيئة العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٦ — ١٩٨٦م .

ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أحمد بن حجر ت ٨٥٢هـ .

(٩) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة — خمسة أجزاء تحقيق محمد سيد جاد الحق . الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م وما بعدها .

(١٠) ———— : أنباء الغمر بأبناء العمر .
الجزءان الأول والثانى تحقيق د. حسن حبشى — لجنة احياء التراث الاسلامى ١٩٦٩ — ١٩٧١ م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ م .

(١١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر — طبع دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٣م .

(١٢) ـــــــــــــ : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا
ـ دار الكتاب اللبنانى ـ دار الكتاب المصرى ـ ١٩٧٩م •

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م
(١٣) وفيات الأعيان ـ تحقيق احسان عباس بيروت •

ابن دقماق : محمد بن أيدمر العلائى ٧٥٠ ـ ٨٠٩هـ
(١٤) الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين تحقيق
د• سعيد عاشور ـ جامعة أم القرى •

(١٥) ـــــــــــــ الانتصار لواسطة عقد الأمصار القسم
الأول (دار الآفاق الجديدة ـ بيروت) •

ابن صصرى : محمد بن محمد بن صصرى •
(١٦) الدرة المضية فى الدولة الظاهرية
تحقيق وليم • م• برنير ـ جامعة كاليفورنيا •
طبع كاليفورنيا بركلى ـ ولوس انجيلوس ١٩٦٣م •

ابن عبد الظاهر : محى الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٤هـ/١٢٩٢م •
(١٧) الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر •
تحقيق د• عبد العزيز الخويطر ـ الرياض ١٣٩٦هـ/١٩٧٦ م •

(١٨) ـــــــــــــ : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك
المنصور ، تحقيق د• مراد كامل ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة
١٩٦١م •

ابن العبرى : غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطى ت ٦٨٥هـ/١٣٨٦م
(١٩) تاريخ مختصر الدول (دار الرائد اللبنانى) ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م

(٢٠) ـــــــــــــ : تاريخ الزمان ـ ترجمة عن السريانية الأب
اسحاق أرملة (دار المشرق ـ بيروت) •

ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم • ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م •

(٢١) تاريخ الدول والملوك •

المجلدات : السابع والثامن والتاسع تحقيق قسطنطين زريق وآخرين • بيروت ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ، ١٩٤٢م •

ابن قاضى شهبة : تقى الدين أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م •

(٢٢) تاريخ ابن قاضى شهبة — المجلدالأول تحقيق عدنان درويش دمشق ١٩٧٧م •

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م •

(٢٣) البداية والنهاية — بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م (منشورات مكتبة المعارف) ، طبعة دار الفكر العربى — مصورة عن طبعة القاهرة ١٣٥٨هـ •

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧هـ

(٢٤) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب •

الجزء الرابع تحقيق د• حسين محمد ربيع — مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٢م •

ابن الوردى : زين الدين عمر بن مظفر ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩ م •

(٢٥) تاريخ ابن الوردى أو تتمة المختصر فى أخبار البشر •
الطبعة الثانية فى جزءين — النجف بالعراق ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م

أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥هـ

(٢٦) الذيل على الروضتين — بيروت ١٩٧٤م — (طبعة دار الجيل — بيروت) •

أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل ت ١٧٣٢هـ/١٣٣١م

(٢٧) المختصر فى أخبار البشر — (دار المعرفة بيروت) •

أبو الفضائل : محمد بن على بن نظيف الحموى ت بعد سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م •

(٢٨) التـــاريخ المنصـــورى ، تحقيق أبو العيد دودو دمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م •

البدليسى : شرف خان — بعد سنة ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م •

(٢٩) شرفنامة جـ ٢ تعريب محمـــد عـــلى عونى ومراجعة يحيى الخشـــاب طبـــع عيسى البابى الحلبى وشركاه — القاهرة ١٩٦٢م •

الخزرجى : أبو الحسن على بن الحسن •

(٣٠) العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية •

طبع صنعاء ، بيروت ١٩٨٣م •

الخطيب الجوهرى : على بن داود الصيرفى ت ٩٠٠هـ •

(٣١) نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان •

ثلاثة أجزاء تحقيق د• حسن حبشى • مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠م •

رشيد الدين : فضل الله الهمدانى ت ٧١٨هـ/١٣١٨م •

(٣٢) جامع التواريخ المجلد الثانى فى جزءين •

ترجمة فؤاد عبد المعطى الصياد وآخرين — طبعة دار احياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) القاهرة ١٩٦٠م •

الصفدى : صلاح الدين خليل ٧٦٤هـ /١٣٦٢م .

(٣٣) الوافى بالوفيات — طبع بيرو ت.

الصقاعى : فضل الله بن أبى الفخر الصقاعى. ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م .

(٣٤) تالى كتاب وفيات الأعيان .

تحقيق جاكلين سوبله — دمشق ١٩٧٤ م .

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن ت

(٣٥) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة .

تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

جزءان — الطبعة الأولى — عيسى الحلبى ١٩٦٨م .

القلقشندى : أبو العباس أحمد ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م .

(٣٦) صبح الأعشى فى صناعة الانشا طبع بيروت .

المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد ت ٨٤٥هـ .

(٣٧) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . الجزء الأول فى ثلاثة أقسام ، الجزء الثانى فى ثلاثة أقسام ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة — لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهررة ١٩٣٤ — ١٩٥٨م ، الجزء الثالث فى ثلاثة أقسام تحقيق د. سعيد عاشور — مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ — ١٩٧١م

(٣٨) ———— : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار — طبع دار صادر بيروت .

(٣٩) اغاثة الأمة بكشف الغمة . منشورات دار الوليد — حمص الشام ١٩٥٦م .

النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م •

(٤٠) نهاية الأرب فى فنون الأدب — جـ ٣١ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة •

اليونينى : قطب الدين أبوالفتح موسى بن سليمان ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م •

(٤١) ذيل مرآة الزمان — الجزءان الأول والثانى — مطبعة الدكن ١٣٧٤هـ — ١٣٧٥هـ / ١٩٥٤ — ١٩٥٥م •

ثانيا — المراجع العربية :

د• السيد الباز العرينى :

١ — الأيوبيون — دار النهضة العربية — بيروت •

٢ — المماليك — طبع بيروت •

د• حسنين ربيع :

٣ — دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية •

دار النهضة العربية بالقاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م •

د• حكيم أمين عبد السيد :

٤ — قيام دولة المماليك الثانية • دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م •

د• حياة ناصر الحجى •

٥ — العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق « حوليات كلية الآداب — جامعة الكويت » الحولية الثانية ١٤٠٠هـ / ١٩٨١م •

د• سعيد عاشور :

٦ — د• الحركة الصليبية — جزءان الطبعة الأولى ١٩٦٣م •

٧ — العصر المماليكى فى مصر والشام — الطبعة الأولى دار النهضة العربية ١٩٦٥م •

٨ — الظاهر بيبرس — المؤسسة المصرية العلمة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م •

٩ — الأيوبيون والمماليك •

د• طرخـــان :

١٠ — مصر فى عصر دولة المماليك والجراكسة •
دار النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦٠م •

د• العبادى : أحمد مختار :

١١ — قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام — الاسكندرية ١٩٨٢م •

ثالثا : المراجع الأوربيـــة :

1 — **Ayalon , D . ,**

Le Regement Bahriya dans L'armee Mamelouke, No. III, in « Studies on the Mamluks of Egypt — 1250 — 1517 », London 1977.

2 — ————— . ,

The Wafidiya in the Mamluk Kingdom, No., II, in « Studies on the Mamluks of Egypt 1250 — 1517 » London 1977.

3 ——————.,

Studies on the Structure of the Mamluk army, No. I, in « Studies on the Mamluks of Egypt 1250 — 1517 », London 1977.

4 ——————.,

The Circassians in the Mamluk Kingdom, No. IV, in « Studies on the Mamluks of Egypt, 1250 — 1517 », London 1977.

5 ——————.,

The Plague and its effects upon the Mamluk army, No. V in, « Studies on the Momluks of Egypt 1250 — 1517 », London 1977.

6 ——————.,

Aspects of the Mamluk phenomenon Ayyubids, Kurds and Turks, No. xb, in « The Mamluk military Society », Collected Studies, London 1979.

7 ——————.,

Names, Titles, Nisbas of the Mamluks No., IV, in « The Mamluk military Society, Collected studies .

8 ——————.,

The European Asiatic steppe, Amajor reservoir of power for the Islamic world, No. VIII, in « The Mamluk military Society » Collected studies. London 1979.

د. سعيد عاشور :

٦ — د. الحركة الصليبية — جزءان الطبعة الأولى ١٩٦٣م .

٧ — العصر المماليكى فى مصر والشام — الطبعة الأولى دار النهضة العربية ١٩٦٥م .

٨ — الظاهر بيبرس — المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م .

٩ — الأيوبيون والمماليك .

د. طرخـــان :

١٠ — مصر فى عصر دولة المماليك والجراكسة .
دار النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦٠م .

د. العبادى : أحمد مختار :

١١ — قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام — الاسكندرية ١٩٨٢م .

ثالثا : المراجع الأوربيـــة :

1 — Ayalon , D . ,
Le Regement Bahriya dans L'armee Mamelouke, No. III, in « Studies on the Mamluks of Egypt — 1250 — 1517 », London 1977.

2 — ————— . ,
The Wafidiya in the Mamluk Kingdom, No., II, in « Studies on the Mamluks of Egypt 1250 — 1517 » London 1977.

3 ———————.,

Studies on the Structure of the Mamluk army, No. I, in « Studies on the Mamluks of Egypt 1250 — 1517 », London 1977.

4 ———————.,

The Circassians in the Mamluk Kingdom, No. IV, in « Studies on the Mamluks of Egypt, 1250 — 1517 », London 1977.

5 ———————.,

The Plague and its effects upon the Mamluk army, No. V in, « Studies on the Momluks of Egypt 1250 — 1517 », London 1977.

6 ———————.,

Aspects of the Mamluk phenomenon Ayyubids, Kurds and Turks, No. xb, in « The Mamluk military Society », Collected Studies, London 1979.

7 ———————.,

Names, Titles, Nisbas of the Mamluks No., IV, in « The Mamluk military Society, Collected studies .

8 ———————.,

The European Asiatic steppe, A major reservoir of power for the Islamic world, No. VIII, in « The Mamluk military Society » Collected studies, London 1979.

9 — ————— .,

The system of payment in Mamluk military Society, No. VIII, in « Studies on the Mamluks of Egypt » 1250 — 1517.

10 — Browne ,

Atiterary History of Persia vol. III, The Tartar dominion 1265 — 1502 Cambridge university Press 1951.

11 — Cambridge ,

Cambridge History of Iran, vol. 5., edited by J. A. Boyle, the university Press 1968.

12 — De Mi Gnanelli ,

Assensus Barcoch, in « Arabica vol. 6 — 1959 ».

13 — Heyd ,

Histoire du Commerce du Levant au moyen Age, Tome, II.

14 — Howorth ,

History of the Mongols, Part II, III, London 1880 — 1888.

15 — Grousset, R .,

L'empire Mongole, Paris 1941 .

16 — ————— .,

Lêmpire des steppes, Paris 1948.

17 — Lane Poole, S.,

History of Lgypt in the middle ages, London 1936.

18 — Muir, W .,

The Mamluks or slave Dynasty of Egypt . , Amsterdam 1968.

19 .. Villehardouin and D. Joinville,

Memoirs of the Crusades, Joinvills cronicle of the crusade of St. Lewis, Trans., Sir frank Mar Zials, Londls, London 1965.

20 — Wiet ., G.

L'Egypt arabe .

21 — William F. Tucker,

Natural disasters and the Peasantry in Mamluk Egypt, in « Journal of the economic and Social history of the Orient, vol. XXIV, 1981.

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٠٤/١٩٨٨
الترقيم الدولى ٩ — ٠٤٠٣ — ٠٤ — ٩٧٧